
محمود وهبة
رواية
جريمة في
بيت المتولي
ساحر الكتب

إهداء

«أهدي تلك الرواية إلى كل من آمَن بقلمي منذ البداية وأكمل الطريق معي داعمًا ومساندًا حتى تلك اللحظات التي أكتب فيها الآن، أهدي كل كلمة كتبتها وسأكتبها إلى أسرتي أبي – إخوتي – زوجتي – أبنائي، أهدي تلك الرواية إلى كل من يقرأها الآن».

أعتقد في طيات نفسي وفي جوانب عقلي أنه على كاتب أدب الرعب أو الجريمة أن يتطرق ولو لمرة واحدة في حياته إلى «تيمة» البيت أو المسكن الذي يحيط به الغموض فهو بيئة ثرية بالتفاصيل، ممتلئة عن آخرها بالمعطيات والأدوات التي تمكّن الكاتب من حياكة ثوب أسود قاتم متعلّق بهالة من الفزع والرعب والغموض، كتبت سابقًا عن «تيمة» البيت ولا أعدكم أن تكون تلك هي المرة الأخيرة؛ فأنا ما زلت أمتلك زخمًا كبيرًا في جعبتي عن البيوت المريبة وما يمكن أن يحدث بداخلها.. والآن جاء وقت طَرْق باب بيت المتولي وأخشى أن يُفتَح لنا من تلقاء نفسه.

الكاتب

ديسمبر 2022

مقدمة

«الطوارق»!!.. كلمة غير مألوفة؟! ربما سمعها أحدكم من قبل، جان «الطوارق» من نسل إبليس.. والآن هي نجحت في جذبك نحو الهاوية السوداء المسماة بالفضول في الظلام، ومن خلال الدماء أبرموا عهدًا مع المتولي.. هنا، نعم حيث يبدأ كل شيء بالتكشف، وأصبح لكلمة «الطوارق» معنى مخيف ومفزع وتحمل الكثير من الأسرار، الكثير من التفاصيل المخبأة في طيات الظلام، دعنا نكتشفها في السطور القادمة، لكن وقبل أن نبدأ سويًا تلك الرحلة، أريد أن أخبرك أن هناك شِركًا يحاك من أجل الإيقاع بك، وللأسف سينجح ذلك الأمر رغم كل محاولاتك البائسة للإفلات، ستقع لكنك ستكتشف حقيقة الأمر وتروي ظمأ فضولك.. وهذا أمرٌ ليس بالسيئ.

(1)

«قلب يائس وبطن تئن من الجوع، وروح هائمة معذَّبة تبحث عن الخلاص، شيطان ينتظر الإشارة من أجل العبور، وقفَ على مفترق الطرق وأبى أن ينظر إلى النور واختار الظلام فابتلعه ثعبان عملاق طحنَ عظامه ثم ابتلعه بيسر وتحرك عائدًا ليجلس أسفل قدم الشيطان».

شتاء عام 1890

بالقرب من إحدى القرى النائية من صعيد مصر

انتصف الليل والقمر المكتمل يلمع في السماء كماسة حمراء اللون نادرة الوجود وكأنه يحمل الوجه الآخر للشيطان الذي يطل ناظرًا إلى الصحراء بتوجس، من بين الظلام ظهر رجلٌ طويل القامة أسمر البشرة، يبدو عليه الإرهاق من تساقط الأمطار على رأسه بغزارة وهو يحمل لفافة كبيرة الحجم خلف ظهره، يخطو خطوات واسعة أشبه بالهرولة، كاد أن يسقط من أعلى تلٍ رمليٍّ لكنه تماسك بصلابة وعزيمة وغرس قدميه داخل الرمال المبتلة وأكمل هبوطه إلى ذلك الوادي الموحش بثبات، وبأنفاس تتسارع كقطار أتلف أحدهم مكابحه.

اختار بقعة معينة يعلمها جيدًا، ثم توقف ووضع ما يحمله من ثقل أرضًا، ثم فك حبلًا كان يحكم وثاقه، أخرج قطعة خشبية مستديرة غريبة الشكل، وضع فوقها كتاب كبير الحجم ثقيل الوزن، أمسك بمبخرة نحاسية ووضع بداخلها بعضًا من البخور غريب الرائحة، أشعله ووضع المبخرة بجانب الكتاب، أمسك بعصا تحمل رأس ثعبان أسود ورسم دائرة كبيرة تحيط به من كل جانب وهو يتمتم ببعض الكلمات، ثم عاد ليجلس أمام الكتاب بعين لامعة وقلب يدق

ويد ثابتة وعقل متأهب.

فتح الكتاب فاشتدت الرياح من حوله، كادت أن تقتلعه من مكانه، نظر إلى أعلى حيث وجه القمر الذي يطل من خلف السحاب فرأى شيئًا مهيبًا يحلق فوق رأسه فاردًا جناحيه، بدأ في القراءة بصوت جهور فرُجت الأرض من أسفل قدمه محدثة فجوة بالقرب منه وصعد منها شيء مفزع لكنه لم يتأثر، أنهى قراءة الورقة الأولى بثبات وأكمل الثانية بنفس الإصرار فسمع دوي صراخ قادم من خلفه لجسد مشتعل خرج من جوف أحد الكهوف مندفعًا نحوه كثور هائج، لكنه تجمد تمامًا عندما لامس تلك الدائرة التي رسمها وظلّ ساكنًا في مكانه ينظر من خلف عينين خلقت من نار السموم.

لم يلتفت إليه بكامل جسده رغم شعوره بوهج النيران خلف ظهره، أكمل القراءة فضرب البرق كل موضع قدمٍ في الوادي إلا تلك الدائرة التي تأويه، كلما أنهى ورقة اشتدّ عليهم الغضب واشتد عليه الثبات حتى انتهى. انتصب واقفًا ليجد نفسه بين خمسة من نسل لعين، خمسة ينتمون إلى سقر حيث سيمكثون هناك إلى أبد الآبدين يصرخون وكل من تبعهم، خمسة لم يروضهم أحدٌ من قبل لكنه استطاع أن يفعل ذلك، ويبدو أنه نجح بالفعل، رضخوا له كرهًا ووافقوا على العهد، عهد ممتد حتى ينتهي نسله.. نسل المتولي، لقد

عقد (المتولي) عهدًا بينه وبين «الطوارق»؛ تلك القبيلة التي لم يجرؤ إنس أو جان على تحديهم أو إرغامهم على فعل أمر على خلاف إرادتهم من قبل.. وقد فعل.

اقترب منه أحدهم بعد أن تشكّل في شكل آدمي مهندم وسيم وهو ينطق باسمه (عزيميل)، وأعطى له لفافة وهو ينظر إليه بغِلٍّ وكره واضحين ثم عاد إلى الخلف ووقف صامتًا يدعي الهدوء، تقدّم آخر بجسد ضئيل مقارنة بمن يقفون بجواره لكنه ما زال مفزعًا وهو يقول (دفرائيل)، ثم ابتعد لخطوات وهو يردد الاسم وابتلعته الرمال. ظهرت معالم الخوف على وجه المتولي وهو يرى جسدًا ضخمًا لثالثهم الأشبه بثور يقف على قدمين وهو يقترب منه، ثم توقف على حدود الدائرة بينما لامس أحد قرونه إطار الدائرة واخترقه فبدأت تحترق وتصدر شررًا، فتراجع ذلك الكيان بعد أن شعر بألمٍ وأخرج لفافة هو الآخر وقال صارخًا (منذرئيل)، ثم هرول بعيدًا في اتجاه جبلٍ انشق له ثم ابتلعه بداخله وهو ما زال يصرخ باسمه وصدى صراخه يتردّد في الوادي الفسيح، شعر المتولي بجفاف حلقه وأحسّ برهبة مما حدث لكنه تماسك عندما رأى أمامه كيانًا أسود طويلًا بدون وجه يقترب منه ثم أصدر صوتًا لا يعلم مصدره قائلًا (خشمنئيل) وأعطاه نفس اللفافة ثم غادر مبتعدًا وتبخر في الهواء، لم يتبقَّ سوى اثنين منهما، أحدهما آدمي والآخر

نار حمراء مستعرة تتشكل بعدة أشياء وكيانات مختلفة، فتارة تصبح على هيئة ضبع يتساقط من بين أنيابه اللعاب وأخرى امرأة غاوية شديدة الجمال ثم إلى طفل بريء مبتسم، وظلت هكذا للحظات وهو يقترب من الدائرة، نطق الطفل بصوت طفولي تحول إلى أنثوي مختلط بزئير حيوان مفترس (عزفئيل) وأعطى له لفافة خامسة ثم تراجع وهو يتشكل بعدة أشياء أخرى وأخذت النيران في الخفوت رويدًا رويدًا حتى لم يصبح لها أثر. أمسك المتولي بالخمس لفائف وضمها على بعضها البعض ثم وضعها داخل ملابسه وهو ينظر إلى مَن تبقَّى منهم ذلك الشيطان المريد الذي يدعي (عزيميل) أقواهم وأطولهم عمرًا وهم يرضخون وينصتون له في كل قراراته.

اقترب (عزيميل) وهو ما زال متشكلًا على هيئة رجل حاد الملامح وقال:

- لا تعتقد أن تلك الدائرة هي من تمنعني عنك، أنا لا أخشى الدائرة ولا أخشى الألم، وكذلك إخوتي الأربعة، أنت لا تعلم حقًّا ما اقترفته يداك، لقد جلبت اللعنة إليك أنت ونسلك، نعيمًا مؤقتًا ونارًا دائمة لك ولهم من بعدك، احرص على تلك اللفافات فهي عهدك وكلمتنا لك، من الآن اطلب تجاب حتى ينتهي زمنك ويخل أحدهم بالعهد فيأتي دورُنا، لقد فعلت

ما كان يخشى أن يفعله أقوى الملوك وأعتى الكهنة وأمهر السحرة.. أرى ما يدور بداخلك من فزع وخوف لكنني معجب بجرأتك، لك عهدنا ما حييت.. كل عام نريد منك خمسة أطفال من نسل تلك القرية تحضرهم لنا عند سفح الجبل الأسود، تأتي وحيدًا، مهمتك أن تبعد أهل القرية قدر الإمكان عن ذلك الجبل فهو مملكتنا وأسفله البوابة التي نأتي منها إلى عالمكم، تذكر كل عام في نفس اليوم خمسة أطفال من نسل تلك القرية وإلا بَطُل العهد بيننا وبينك.

أنهى كلماته واستدار ثم تحرك مبتعدًا عن الدائرة، ابتسم المتولي وأراد الحديث قائلًا:

- أنا لم آمرك أن ترحل، ما زال لدي بعض الأسئلة أيها الجان.

التفت (عزيميل) وتغيرت ملامحه الآدمية إلى أخرى مُفزعة وهو يقول:

- إياك أن تعتقد بعقلك البشري المحدود أننا عبيدٌ لك، نحن أسيادك وأنت عبدٌ لنا، أنت تمتلك عهدًا سيُمزَّق يومًا ما أو سيُمزَّق أمام ناظريك الآن إذا أخطأت مجددًا.

أنهى كلماته واختفى فجأة، ظلَّ المتولي واقفًا لعدة ثوانٍ أسفل تساقط الأمطار الغزيرة وهو يحاول استيعاب ما حدث منذ لحظات، أهو حقًّا استطاع أن يحضر أمامه قبيلة

«الطوارق» رغمًا عنهم، إن ما حدث كان حقيقة، أم أن عقله قد شت بعد أن بحث كثيرًا وقرأ كل كتاب للسحر وقع بيده حتى تلك البردية التي وجدها داخل مقبرة فرعونية وأخفاها عن المعلم (محمدين) الذي يعمل لصالحه في حفر المقابر ويلقي له حفنة من المال كل بضعة أشهر لا تغني ولا تثمن من جوع، ظلَّ شهورًا يحاول معرفة ما هو مكتوب داخل البردية حتى علم أنها تمثل عهدًا لأقوى الشياطين وأكثرهم بطشًا وشرًا وكرهًا لبني آدم، لكنه علم أيضًا أنه سيصبح سيدًا لو تمكن من إبرام عهد معهم.. وقد حدث.

اتسعت بسمته ونظر إلى القمر الدامي وهو يتحول إلى البياض، لملم أشياءه وشعر أنه أقوى من ذي قبل، تحرك في اتجاه التل الرملي فوجد الرمال تحمله إلى لأعلى دون عناء منه حتى وصل إلى القمة، تحرك مختالًا فخورًا بما حققه في طريقه إلى البلدة التي يسكنها والواقعة خلف ذلك الجبل الأسود شاهق الارتفاع الذي يطل وحيدًا كعملاق يسد الأُفق.

***

شتاء عام 2010

القاهرة – أحد الأحياء الشعبية – حارة المتولي

بيت المتولي

هبط الرائد (مراد غفران) من سيارته وهو متجهم الوجه، والدخان يتصاعد من فمه بكثافة. نظر إلى تساقط الأمطار بنفاد صبر وألقى السيجارة أرضًا ثم دهسها أسفل حذائه، فتح الباب الخلفي للسيارة وأخرج مظلة سوداء كلون سترته، ثم سار أسفل منها يستمع إلى ارتطام الأمطار عليها برتابة حتى وصل إلى حاجز أمني يحيط بسور بيت بني على مساحة كبيرة ويحاول المتطفلون من الصحفين والجيران عبوره، لكن يتم منعهم عن طريق أفراد الأمن. ألقى مراد نظرة على البيت من بعيد فوجده بيتًا غريبًا مظلمًا تفوح منه رائحة الموت، يسد الشارع الذي سمي على اسمه. اجتاز ذلك الحاجز الأمني بعد أن تعرف عليه أحد أفراد الأمن وأخذ يردّد «تفضل بالعبور يا باشا» بينما منع بقية المحيطين بالمنزل من العبور. عبر الرائد مراد من داخل فجوة متهدمة في حائط موجود بني بدلًا من البوابة الخارجية للمنزل عن طريق أهل الحي منذ عشرات السنين لسبب يتوارثه أهل الحي ويورثونه وهو أن منزل المتولي مسكون بالجان لا يجوز الاقتراب منه، ولا يمكن لأحد أن يدخله ويخرج من

دون أذى.

وصل مراد إلى باب البيت الخشبي قديم الطراز، وظل ينظر إلى كل التفاصيل ويدقق فيها جيدًا كما هي عادته، ثم نظر أسفل قدمه ليرى دماء متجلطة على عتبه الباب قادمة من جسد ما ممزق بالداخل في منتصف الصالة، محاط برجال الطب الشرعي والمباحث الجنائية.

لاحظ أحد الموجودين بالداخل وجوده فتحرك إليه مسرعًا:

- مراد باشا، لقد حضرت سريعًا رغم تساقط الأمطار وازدحام الطرق.

نظر له الرائد (مراد):

- شريف، أنت تعلم جيدًا أنني لا أحب كثرة الحديث، أخبرني بما حدث.

حاول (شريف) الابتسام لكنه شعر أنه لا داعي لذلك فقد وبخه قائده للتو فقال مسرعًا:

- المجني عليه يدعى (رشاد جمال التهامي) 40 عام، مسجل خطر، وله أكثر من سابقة سرقة ومشاجرة وشروع في قتل، يسكن في العقار رقم 5 من نفس الشارع، تم الإبلاغ

عن جريمة القتل منذ ثلاث ساعات عن طريق (بكر) الذي يمتلك محلًا قريبًا للغاية من ذلك البيت بعد أن سمع صوت صراخ رشاد قادمًا من داخل المنزل، فاقترب ونظر من بين السور الحديدي ليجده يستغيث به وهو يقطر دمًا غزيرًا ثم سحب رشاد إلى الداخل وصرخ صرخة مدوية.

نظر (مراد) إلى (شريف) بتعجب ثم قال:

- هل شاهد أحد آخر غير بكر ما حدثَ؟

حرك (شريف) رأسه يمينًا ويسارًا نافيًا وهو يجيب:

- بكر فقط مَن شاهد ما حدث وأبلغنا أن لديه كاميرات صوَّرت تلك الواقعة وهناك واحد من رجالنا يحصل على التسجيلات.

أخذ (مراد) نفسًا عميقًا ثم وضع يده على كتف (شريف) قائلًا:

- جيد، أريد فورًا كوب من القهوة ولنبدأ العمل، مَن الطبيب الشرعي المكلَّف بالداخل؟

تحرك (شريف) خطوات في طريق الخروج وهو يرد:

- الطبيب عمر وهدان، سأحضر لك القهوة على الفور.

أنهى كلماته ثم اتجه إلى تلك الفجوة داخل السور وخرج

منها مسرعًا والأمطار تتساقط فوق رأسه.

أغلق الرائد الشمسية وأسندها بجانب الباب أرضًا، ثم دلف إلى البيت بخطوات هادئة وعينه تدور في كل مكان ليرى بيتًا فسيحًا قديم الطراز والأثاث ممتلئ بالأتربة وشِباك العنكبوت في كل مكان، الكثير من الفوضى والدماء تملأ أرض الصالة الفسيحة في اتجاه الضحية، وهناك سُلّم يقود إلى دور علوي، وهناك سلم آخر يقود إلى دور سفلي لم يكترث لهما، أكمل سيره حتى اقترب من الجثة التي كانت لشاب ممزَّق الجسد ويبدو أنه فارق الحياة بعد أن شعر بألم كبير.

لاحظ الطبيب الشرعي (عمر وهدان) وجود الرائد (مراد) بجانبه فوقف وهو ما زال ينظر إلى جثة (رشاد) بتعجب ثم قال:

- لدينا عمل شاق حتى نعلم ما حدث لذلك الرجل.

أكمل (مراد) تفحُّص جثة الرجل بعينيه متسائلًا:

- ما الذي توصلت له بعد الفحص الأوَّلي؟

رفع (عمر) حاجبيه مجيبًا:

- الجرح الموجود في رقبته غائر للغاية، لا أعتقد أنه بسبب

سكين أو أداة حادة، أنا أرجّح أنه ناتج عن مخالب لحيوان ما وهو السبب الرئيسي في الوفاة، أحتاج المزيد من الوقت لأحدد كل شيء بدقة.

اتسعت عين الرائد (مراد) من تلك الجملة:

- مخالب لحيوان!!

أومأ الطبيب (عمر) برأسه إيجابًا.

- نعم، كما أن عضوة الذكري مقطوع، أذنه كذلك، لسانه، هناك حرق من الدرجة الثانية يحتل معظم ظهره، عظام ساقيه محطمة كما لو أن مطرقة ثقيلة الوزن أحدثت ذلك الضرر، لذلك أخبرتك أن لدينا عمل شاق حتى نعلم حقيقة ما حدث.

ظهرت معالم الغضب على وجه الرائد (مراد) قائلًا:

- كم تحتاج من الوقت كي تنهى التشريح وكتابة تقريرك المفصل؟

انحنى الطبيب (عمر) وأخذ يتفحص الجرح الغائر في رقبه (رشاد) وهو يجيب:

- 48 ساعة على ما أعتقد وسأكون قد انتهيت من التشريح، وإن استطعت قبل ذلك فسوف أخبرك بكل تأكيد.

أخرج (مراد) علبة السجائر ثم أخرج واحدة وأشعلها، أخذ نفسًا عميقًا وأخرج الدخان معقبًا:

- جيد، سوف أنتظر التقرير.

دخل الضابط (شريف) وهو يحمل كوبين من القهوة أعطى واحدًا إلى (مراد) وظلَّ ممسكًا بالآخر، أخذ الرائد رشفة من القهوة ثم وقعت عيناه على صورة قديمة معلَّقة على الحائط ويغطيها الأتربة، اقترب من الحائط وتبعه (شريف)، أخرج منديلًا ومسح التراب الذي كان يغطيها فوجد رجلًا أسمر اللون ظلَّ ينظر إليه للحظات بترقب وتركيز ثم قال متسائلًا:

- مَن هذا الشخص؟ أظن أنني أعرفه.

ينظر (شريف) إلى الصورة مجيبًا:

- لا أعلم من صاحب تلك الصورة لكنه يبدو أنه مالك البيت.

يخرج (مراد) هاتفه الجوال ثم يلتقط صورة لذلك الرجل ويكمل السير داخل البيت ويتبعه (شريف) كظِله، بينما يضع رجال الطب الشرعي جثة (رشاد) داخل حاوية سوداء ويخرجون به من باب البيت ويتبعهم الطبيب الشرعي وهو يشير إلى الرائد (مراد) والملازم (شريف) مودعًا.

يقف الضابطان أمام السلالم التي تؤدى إلى أعلى والأخرى

التي تهبط إلى أسفل، ينتهي الرائد (مراد) من تدخين السيجارة ثم يضعها داخل كوب القهوة ويتركهم أرضًا وينظر إلى (شريف) وهو يتجه إلى السلالم التي تقود إلى الدور العلوي قائلًا:

- سوف نبدأ بالدور العلوي أولًا ثم نختتم جولتنا داخل بيت المتولي بالدور السفلي الذي أتوقع أنه يحوي أسرارًا.

ينهي كلماته وهو يصعد السلالم ويتبعه (شريف) الذي أنار كشَّاف هاتفه الجوال وصعد مسرعًا كي ينير الطريق لـ (مراد).

***

فور خروج رجال الطب الشرعي بجثة (رشاد) ووضعوها داخل سيارة الإسعاف، بدأ الصحفيون بأخذ الصور ومحاولة طرح الأسئلة لكن انتهى الأمر سريعًا مع انطلاق سيارة الإسعاف.

خرج الشيخ (بدر) من باب جامع صغير يقع أسفل عقار بالقرب من نهاية الشارع وهو ينظر إلى سيارة الإسعاف، أخذ يسبّح على مسبحة في يده وهو يشعر بالحزن والأسى على ما أصاب (رشاد) رغم كره أهل الحي له، لكنه يعلم يقينًا أنه قد كفَّر عن كل ذنوبه داخل ذلك البيت قبل أن يلقى

حتفه، اتجه الشيخ إلى محل كُتبَ أعلاه «صلاح المكوجي» ثم سحب كرسيًّا وجلس أمام المحل بجانب (صلاح) الذي كان ينظر إلى الصحفيين وهم يغادرون الشارع ثم نظر إلى الشيخ (بدر) وقال:

- غبي، رشاد كان إنسانًا غبيًّا، حذرناه جميعًا من دخول بيت المتولي لكنه أصابه الطمع وذهب إلى هناك بعد أن رفض كل من كانوا معه الدخول.

انتهى الشيخ (بدر) من تسبيحه ثم ردَّ بأسى:

- لا أعلم مَن أخبره بأمر ذلك الكنز الزائف المدفون أسفل البيت.

نظر له (صلاح) في مكر.

- أنت وأنا وكلُّ مَن تربى هنا يعلم أن الكنز حقيقي يا شيخ بدر.

وقف (بدر) وقد ظهرَ عليه الضيق وقال بصوت مرتفع:

- حتى وإن كان حقيقيًّا فمِن الجنون أن يدخل شخص عاقل إلى بيت المتولي وهو يعلم بحقيقته، يبدو أن رشاد ليس المختل الوحيد في ذلك الحي، السلام عليكم.

أنهى الشيخ كلماته وغادر وهو ما زال يتحدث إلى نفسه

بغضب. ظهرت علامات التعجب على وجه (صلاح) ثم التفت ليجد أمامه فتاة حَسِنة المظهر تمسك «بكاميرا» وتدوِّن شيئًا ما وهي تقول:

- اسمي منال السيوفي صحفية في جريدة الجدار، أريد أن اطرح عليك بعض الأسئلة حول ذلك البيت.

اعتدل (صلاح) في جلسته متسائلًا:

- وما المقابل؟

اتسعت بسمة (منال) ثم جلست بجواره وهي تخرج مبلغًا ماليًّا:

- خمسمائة جنيه، ذلك هو المقابل وإن أخبرتني عن رشاد فسيصبحون ألف جنيه.

***

أمسك بكشاف كبير مضيء يعلو منضدة التشريح وركّزه على وجه الجثة، ارتدى القفازات البيضاء وأحضر أدوات التشريح، ارتدى كمامة حول أنفه وفمه ثم شغَّل موسيقى هادئة على هاتفه الجوال تساعده دائمًا على تصفية ذهنه والتركيز في عمله الشاق، اتجه إلى باب الحجرة وأحكم غلقها من الداخل بعد أن أخبر العامل أن الأمر سيطول.

أخذ نفسًا عميقًا ثم اتجه إلى ذلك الجثمان المشوّه، أزاح الغطاء الأبيض الذي أصيب ببعض الدماء، أحضر «الكاميرا» وأخذ بعض الصور كي يوثق عملية التشريح، اقترب من الجرح الغائر في رقبة الضحية وأحضر أدوات لقياس طول الجرح من الخارج وعمقه إلى الداخل ثم دون ملاحظاته، أخذ يتفحص باقي الجثة وكلما توصل إلى شيء ما شعر بخوف أكبر ويزداد الأمر غرابة.

بعد عدة ساعات شاقة من التشريح انتهى (عمر) من عمله وكان محقًا في أمر تلك الجروح.. إنها لم تكن من فعل سكين أو أداة حادة، وإنما كانت نتيجة مخلب قاتل يرجَّح أنه يعود إلى دب كبير الحجم.

دوَّن كل ما توصل إليه داخل التقرير وأرفق به الصور الموضحة لكل الإصابات، أغلق الموسيقى ووضع الهاتف في جيب البالطو الأبيض ثم اتجه إلى الجثمان ووضع الغطاء فوقه، تحرك في اتجاه الباب وقبل أن يفتحه سمع صوتًا قادم من الجثة، تصلَّب جسده وسرت رعشة في أوصاله كادت أن توقعه أرضًا، التفت ببطء ممتزج بالفزع فوجد الجثمان جالسًا أعلى المنضدة وما زال وجهه مغطى، التصق ظهره بالباب ويده ما زالت تبحث عن المقبض، تعرَّق جبينه رغم برودة الجو بينما نطق (رشاد) بكلمة واحدة وبصوت

مسموع (عزيميل)، ثم ارتخى جسده وعاد إلى وضعيته السابقة وكأن شيئًا لم يحدث.

ظلَّ (عمر) واقفا متيبسًا في مكانه لعدة دقائق لا يعلم حقيقة ما يحدث، يتساءل هل انتهى الأمر، ما الذي حدث للتو، هل ما حدث حقيقة أم أن عقله أصابه المرض وصوَّر له مشهدًا مرعبًا لم يره حتى في أسوأ الأفلام؟؟ تمكَّن من فتح الباب لكنه لم يعطِ ظهره إلى الجثة، خرج من باب الغرفة وأغلق الباب وهو ما زال ينظر إلى الجثة عبر الشباك الزجاجي ثم تحرك بخطوات سريعة وهو يتلو ما يحفظه من آيات.

***

نظر (شريف) إلى ساعته فوجدها تخطَّت منتصف الليل. اتجه إلى (مراد) الذي ما زال يقف أمام مكتبة عملاقة ممتلئة بالكتب القديمة يتفحصها على ضوء الكشاف، ثم نظر بجانبها أرضًا ليجد قطعة خشبية مستديرة غريبة الشكل ومبخرة نحاسية وبالقرب منهم عصا تحمل رأس ثعبان، شعر (شريف) أنه مجهد للغاية، وأن هناك أمرًا ما مريبًا يحيط بذلك المكان أسفل بيت المتولي فقال:

- مراد باشا، لقد تأخر الوقت ونحن ما زال أمامنا يومٌ حافلٌ في الغد، سنحقق مع الشهود والجيران، لا يوجد هنا في

الدور السفلي سوى الكتب القديمة وشباك العنكبوت، أعتقد أنه لا فائدة من وجودنا هنا الآن.

التفت (مراد) وهو ما زال يمسك بكتاب ما:

- إن كنت تريد الرحيل ومقابلتي غدًا في المكتب فافعل، أنا لم أنتهِ بعد من البحث.

أنهى كلماته ثم صمت قليلًا ووجَّه الكشاف إلى وجه (شريف) الذي حاولَ أن يتفادى الضوء القوي مستكملًا لكلامه:

- أنت لست مرهقًا، يبدو عليك الخوف، ما الأمر؟

نظر (شريف) حوله:

- قبل أن تحضر إلى موقع الجريمة تحدثت مع بعض الجيران عن ذلك البيت، وأخبروني جميعًا أن البيت مسكون بالجان، وليس أي جان بل هم قبيلة من أشد أنواع قبائل الجان شرًا، يدعون «الطوارق» وأنهم هم مَن قتلوا عائلة المتولى في الماضي وقتلوا رشاد أيضًا ولديهم تاريخ دموي مع السكان.

أصدر (مراد) ضحكة مرتفعة قائلًا:

- الجان!! الجان هم من يقتلون الآن؟ كنت أعتقد أنك أقوى

من ذلك لكن يبدو أن خبرتك ما زالت ضئيلة، اسمعني جيدًا أيها الشاب، الجان لا يقتل، الجان لا يسرق، الجان لا وجود لهم في عالمنا، نحن فقط من نقتل ونسرق ونتسبب في أبشع الحوادث، عليك أن تتعلم الحفاظ على رباط جأشك وأن تكون أكثر منطقية.

نظر (شريف) إليه في خوف قائلًا:

- سوف أفعل أنا فقط رأيت بعضًا من الأشياء المريبة تحدث هنا، لكن على أي حال لم يعد لوجودنا هنا فائدة، الجميع غادر والمكان هنا مظلم، لماذا لا نؤجل البحث هنا بعد التحقيقات وأن نبحث في النهار أو في وجود ضوء كافٍ وأن...

قطع حديثهما صوت أقدام كثيرة تهرول فوق رؤسهم في الصالة، نظر (مراد) إلى (شريف) في تعجُّب ثم تحرك باتجاه السلالم سريعًا وتبعه (شريف) وقبل أن يصل إلى الباب أغلق في وجهه بقوة كادت أن تخلعه من مكانه واصطدم به فسقط على السلالم وأخذ في طريقه (شريف) وأكملا طريقهما إلى القاع.

اعتدل مراد (سريعًا) وأمسك بالكشاف وصعد مسرعًا وفتح الباب بحذر وهو يخرج سلاحه النارى لكنه لم يجد أحدًا، أشار إلى (شريف) أن يبحث بالأعلى بينما أكمل هو

البحث في ذلك الدور لكنهم في النهاية لم يجدوا أحدًا.

أخذ (مراد) في نفض ثيابه من الغبار الذي التصق بها أثناء وقوعه بينما ظل (شريف) واقفًا متأهبًا.

- أرى على وجهك الحيرة وكأن ما حدث يؤكد شكوكي.

لم يتحدث (شريف) لكن ملامح وجهه كانت كافية لإثبات صحة ما قاله (مراد)، الذي اتجه إلى الخارج وحمل مظلته واتجه إلى سيارته وقبل أن يفتح الباب نظر إلى (شريف) وقال:

- أريد حراسة 24 ساعة ولا يدخل أحد البيت حتى أسمح له، عَيّن الحراسة وأغلق باب البيت ثم اذهب كي ترتاح قليلًا، وأراك في الغد.

أنهى كلماته وركب سيارته ثم أدار المحرك وانطلق مبتعدًا عن ذلك البيت وهو يحمل الكثير من التساؤلات في داخله عن ما حدث لـ (رشاد) وعن ما حدث لهم منذ دقائق، والأهم عن ماهية ذلك الرجل أسمر البشرة الذي رأى صورته معلَّقة داخل المنزل، فهو يعلم يقينًا أنه رآه من قبل لكنه لا يتذكر أين ولا متى، شردَ قليلًا ثم أفاق من شروده عندما ظهر أمامه الشيخ (بدر) فجأة، فضغط على المكابح بسرعة وتوقف في الوقت المناسب، تبادلا النظرات قليلًا

بعدها تحرك الشيخ إلى المسجد بينما ظلَّ (مراد) ينظر إليه بتعجب.

***

أحد أحياء مصر الجديدة

شارد العقل ينظر إلى الشوارع من داخل شرفته دون هدفٍ وهو يدخّن بشراهة، شعر ببرودة الطقس تضرب جسده فانتهى من التدخين وألقى بالسيجارة بعيدًا ثم دخل إلى شقته وأحكم إغلاق الشرفة وشد ستائرها السوداء، تحرك بخطوات متأنية عبر شقته كبيرة المساحة ذات الأرض الخشبية التي تئن مع كل خطوة، متجهًا إلى غرفة مكتبه قليلة الإضاءة، أمسك بروب ثقيل كان موضوعًا أعلى كرسي خشبي وارتداه ثم اتجه وجلس خلف مكتبه الفسيح المكتظ بالأوراق المدوَّن عليها ثم بدأ في ترتيبها حتى انتهى، وقف وترك الورق أعلى المكتب ثم اتجه إلى المطبخ الذي يقع في آخر الرواق، أعدّ فنجان قهوة وظل يراقب النيران المشتعلة أسفل الكنكة وشرد من جديد وأخذ يتذكر ما حدث في الماضي بوجهٍ منزعج، دمعت عيناه وهو يستمع إلى عدة أصوات مختلفة داخل رأسه ثم انتهى من شرودة قبل أن تفور القهوة. أحضر فنجانًا اعتاد على الشرب منه ثم صبَّ القهوة بيسر وحملها بحرفية، عاد إلى مكتبه من جديد وأمسك بالورقة والقلم وبدأ في الكتابة وهو يرتشف من فنجانه.

بعد عدة ساعات كان قد انتهى من الكاتبة ومن شرب آخر

رشفة في فنجان القهوة الذي لم يكن يعلم أهو الفنجان الخامس أم السادس الذي شربه أثناء الكتابة، بحث عن هاتفه الجوال في كل مكان حتى وجده أسفل الكرسي الذي يجلس فوقه، بحثَ بداخله عن رقم ناشره الذي تعوَّد أن ينشر معه منذ عدد سنين لا يحصيها ثم اتصل به، منتظر الرد ثم قال:

- فريد مساء الخير، أحمل لك أخبارًا سعيدة، لقد انتهيت من كتابة الرواية الجديدة، أعلم أنني تأخرت شهرًا عن ميعاد التسليم لكنني انتهيت، أنا سأكون في انتظارك غدًا كي نوقع العقود وأسلمك الرواية.

استمع إلى ما يقال من (فريد) ثم ردَّ بوجه غاضب:

- أنت تعلم جيدًا أنني لا أغادر المنزل إلا في أوقات معينة، أنا سئمت حقًا من شرح الأمر لك مرارًا وتكرارًا يا فريد، هذا قرار نهائي، أنا أشعر بالراحة هنا بين جدران منزلي، لا ترهق نفسك وترهقني معك، سأكون في انتظارك. تصبح على خير.

أنهى المكالمة ثم وضع الهاتف داخل جيب روبه كي لا يفقده من جديد، ثم اتجه إلى مكتبته الضخمة التي تحتل حائطًا كبيرًا داخل الغرفة، وقف أمامها للحظات ثم أخرج منها عددًا من الكتب قام برصها فوق بعضها البعض وهو يقول:

- الرواية رقم 20 في مسيرتي، لا بل الواحدة والعشرون إذا لم نحتسب تلك...

أنهى جملته ثم نظر إلى رواية تطل وحيدة في رف مرتفع مكتوب عليها «الطوارق» وبجانبها اسم المؤلف (ناصر المهدي)، مدَّ يده كي يمسك بها لكنه شعر بالخوف وأصابت الرعشة يده فسحبها وغادر مكتبه وهو يغلق الإضاءة والباب في عجالة، وفور خروجه ظهر شخص غير واضح الملامح يرتدي بدلة يقف أمام المكتبة وينظر إلى خيال (ناصر) الذي يبتعد من خلف الباب.

(2)

«لا يكتمل العهد إلا بين إنسي وجان، دماء تسيل وأجساد تباح، قرابين تُقدّم ومطالب تُنفّذ، خوف وظلام ونار تسكن القلوب، شيطان يبتسم وآدمي ينعم لوقت معلوم ثم تنقلب الطاولة على الجميع مع ضوء قادم من قلب نقي».

شتاء عام 1891

إحدى قرى صعيد مصر

جلس (المتولي) في بيته الجديد الذي بني على أرض شاسعة في مكان ناء على أطراف القرية وهناك العديد من الرجال يمثلون أكابر البلد يجلسون معه في تعجُّب لما وصل إليه المتولي من قوة وثراء بعد أن كان عاملًا بسيطًا من وسط مئات العمال الفقراء.

نظر لهم المتولي في هدوء قائلًا لهم:

- أرى كل آيات التعجب على وجوهكم. عشرات الأسئلة تدور داخل رؤسكم ولا أملك اجابة لها، لقد أحضرتكم اليوم لنبدأ عهدًا جديدًا من الثراء والقوة معًا.

نظر الرجال إلى بعضهم البعض ثم تكلم أحدهم:

- لا نريد أن نسأل عن مصدر مالك، ولا نريد أن نعلم عمن يمدك بتلك القوة، لكننا نريد أن نعرف ما الذي تستطيع تقديمه لنا؟

ابتسم (المتولي) ونظر إلى الرجل فتراجع في جلسته وانكمش جسده من دون سبب.

- أنا سأفتح لكم كل قبر، وأستخرج لكم كل كنز وأشفي لكم

كل عليل، وأهزم لكم كل عدو.

اتسعت بسمة الرجال وارتفعت أصوات الهمهمة ليقول أحدهم:

- كلام جيد، سنرى مدى صحته لكن ما يشغلني حقًّا المقابل، ما المقابل الذي تطلبه منَّا أمام ما ستقدمه لنا؟

أمسك (المتولي) بالعصا التي تحمل رأس ثعبان أسود واستند عليها واقفًا قائلًا:

- المقابل ثلث ما أستخرجه من المقابر من ذهب وتماثيل وكتب.

ظهرت معالم الغضب على وجه الرجال فأكمل (المتولي):

- ثلث ما تخرجه الأرض من محاصيل.

نظر إلى أعينهم الماكرة ليكمل:

- خمسة أطفال كل عام.

وقف أحد الرجال وقد استشاط غضبًا:

- أنسيت أصلك؟ أنت لا تنتمي إلى هذه البلدة ولا تنتمي إلى أهلها، لا يحق لك أن تطلب..

أشار له (المتولي) بالعصا فأصابه الخرس، ثم أخذ يقترب

منه وينظر له في غضب، بدأ الرجل يتألم ويحاول الصراخ لكنه لا يستطيع، جثا على ركبتيه ثم احمر وجهه وبدأت الدماء في الخروج من عينيه وأنفه وأذنيه وبدأ جسده في التشنج ثم مات أمام أعين الجميع الذين نظروا إلى بعضهم البعض، وقال أحدهم وهو يرتعش:

- نوافق على جميع الشروط يا المتولي.

التفت إليهم وعاد إلى كرسيه ثم ترك العصا من يده:

- موعدنا فجرًا بالقرب من الجبل الأسود.

وقف الرجال وتحركوا مارّين بجسد صاحبهم الملقى أرضًا وقد فارق الحياة وهم صامتون لا يقوون على الحديث أو المواجهة، خرجوا جميعًا وأُغلق باب الدار من تلقاء نفسه، ظلَّ ينظر (المتولي) إلى جسد الرجل الملقى أرضًا ثم ابتسم عندما بدأ جسد الرجل في التحرك واعتدل جالسًا وكأن الحياة قد عادت إليه، بدأ جسده في التحول من الشكل الآدمي إلى شكل كيان أسود مفزع وقف واتجه إلى (المتولي) الذي نظر إليه وقال:

- أبالسة، لقد كنت مقنعًا للغاية.

نطق ذلك الكيان بصوت مفزع:

- لقد كنت أنت مقنعًا أكثر مني.. أظن أننا ألقينا الرعب في قلوبهم بما يكفي.. ستجدنا بالقرب كلما احتجت إلينا.

أنهى كلماته وابتلعته الأرض في لحظات بينما ظلَّ (المتولي) جالسًا يفكر فيما هو مقبل عليه. ابتسم عندما شعر بالقوة. وقف مستندًا على عصاه وتحرك إلى غرفة منعزلة داخل منزله، نظر إلى يمينه ثم إلى يساره بترقب ثم فتحها ليطل الظلام، أمسك بشمعة وأضاءها ليتبدد الظلام ويظهر وجه الرجل الذي كان أحد الطوارق متشبه به من قبل مكبل ومكمَّم الفم، قرَّب المتولي الشمعة منه وهو يبتسم ثم أخرج سكينًا حادًا ظل يرمقه الرجل بخوف وهو يبكي ويحاول الصراخ لكنه يفشل، طعنه المتولي عدة طعنات في أماكن متفرقة من صدره وبطنه حتى فارق الحياة، شعر أن هناك أحدًا يقف خلفه فالتفت ليجد أحد أبنائه مستترا وهو يرتعش وقد ابتلت الأرض أسفل قدمه، هرول إليه ثم حمله واتجه به إلى إحدى الغرف مسرعًا وهو يقول:

- اهدأ يا منصور، اهدأ ولا تخف.

***

شتاء عام 2010

القاهرة

أشار الرائد (مراد) إلى العسكري المكلَّف بحراسة البيت أن يظل بالخارج، بينما هو اجتاز الأشرطة الصفراء وفتح باب بيت المتولي ودخل وهو يحمل كشافًا كبير الحجم بيدٍ وسلاحه الناري في اليد الأخرى، أنار الكشاف وأغلق باب البيت خلفه ثم أخذ نفسًا عميقًا وتحرك إلى الداخل بخطوات حذرة هادئة، شعر لوهلة أنه لا يفعل الصواب لكنه تعوَّد أن يكمل أي طريق يبدأه مهما كان محفوفًا بالمخاطر، طبع التصق به منذ الصغر، وقف في منتصف الصالة الشاسعة ووجَّه الكشاف إلى صورة الرجل أسمر البشرة المعلقة على أحد الحوائط واقترب منها قليلًا، سمع صوت أقدام تهرول خلفه فاستدار ووجَّه الضوء نحو الأقدام لكنه لم يجد أحدًا، تبادر إلى ذهنه ما قاله (شريف) عن الجان، وعن أن المنزل مسكون على حد قول الجيران، كاد أن يأخذ قرارًا بالتراجع لكن هناك شيئًا ما يجذبه إلى أن يهبط تلك السلالم ويبحث من جديد، هناك شعور يؤكد له أن حل تلك القضية في الدور السفلي.

هبط السلالم ودفع الباب بقدمه ثم أسنده بجذع خشبي، وجَّه الضوء إلى أسفل فلمح خيالًا يعدو، هبط بهدوء

والفضول يأكل جدار عقله، اتجه إلى المكتبة العملاقة التي وقف أمامها من قبل، وأخذ يقلب في الكتب لكنه لا يستطيع فهم ما بداخل أي كتابٍ، تحرَّك خطوة يمينًا اصطدمت قدمه بشيء ما، وجَّه الضوء عليها ليرى القطعة الخشبية دائرية الشكل وما تحمله من حروف محفورة عليها، انحنى أرضًا ونظر إليها وأخذ يتفحصها، وقعت عيناه على العصا التي تحمل رأس ثعبان أسود، حاول أن يمسك بها لكنها تحولت إلى ثعبان كامل، فجأة تحرك واختفى في الظلام، انتفض جسده ووقف وقد تعالت أنفاسه وهو يوجِّه الضوء في كل مكان خوفًا من الثعبان الشارد، التفَّ حول نفسه عدة مرات ثم وقف متصلب الجسد عندما كشف الضوء عن شخص طويل القامة يقف أمامه في ثبات، وجَّه الكشاف إلى وجهه ليرى نفس الرجل الذي كان في الصورة ينظر له في ثبات ومن دون أن يتفوه بكلمة.

تراجع (مراد) خطوات للخلف وما زالت أنفاسه المتعالية تفضح خوفه، ثم توقف عندما اختفى الرجل من أمامه وكأنه لم يكن متواجدًا، شعر أن هناك أمرًا غريبًا يحدث معه وأنه على وشك الانهيار، دقات قلبه تتعالى متزامنة مع أصوات أنفاسه، أوصاله تأبى التماسك، عيناه تدوران في كل مكان. أخذ يلتفت حول نفسه كمن فقدَ عقله للتو ومن بين الظلام، انقضَّ عليه ذلك الرجل وهو يصرخ في وجهه قائلًا:

- غادر منزلي

ليفيق (مراد) من نومه مفزوعًا وهو يسعل بشدة ويزيح الغطاء ويسقط أرضًا وهو يحاول التنفس ويخرج صوت صفير من صدره وكأنه كاد أن يفارق الحياة أثناء نومه.

بعد عدة لحظات تماسك وأصبحت أنفاسه منتظمة، اعتدل وأضاء الأباجورة الموجودة أعلى كومود صغير فانتهى الظلام ثم نظر إلى الفراش فوجده آثار العرق تشكل جسدًا نائمًا، نظر إلى ملابسه فوجدها مبتلة جميعًا، مسح العرق من جبينه ثم أمسك جواله فوجد الساعة تشير إلى الرابعة صباحًا، وقف على قدميه واتجه إلى الحمام المتصل بغرفة نومه لكي يستحم ليذهب آثار العرق من على جسده.

أغلق تدفق المياه وارتدى ملابسه ثم غادر الحمَّام واتجه إلى الخزانة، أخرج بدلة سوداء وقميصًا أبيض، ارتداهم سريعًا ووضع سلاحة الناري داخل سترته وفتح باب الغرفة واتجه إلى الصالة لتقع عيناه على أمه وهي تصلي الفجر.

جلس بالقرب منها في انتظار أن تفرغ من صلاتها وهو يفكر في أن يخبرها عن ذلك الكابوس الذي يراوده كل بضعة أشهر لكنه تلك المرة أصبح يحمل تفاصيل أكثر، فكر قليلًا هل يخبرها أو أن يبقي ذلك الأمر داخل صدره خوفًا على أن

يقلقها معه. انتهت من صلاتها ثم التفتت إليه وهي تقول:

- ذلك الكابوس من جديد أليس كذلك؟

ظهرت معالم التعجب على وجهه متحدثًا:

- كيف علمتِ بأنني رأيت كابوسًا؟

ابتسمت وهي تشير له أن يقترب منها فوقف واتجه إلى كرسي قريب وجلس أمامها كطفل صغير، مسحت على رأسه في حنان قائلة:

- صوت نزاعك كان مرتفعًا وكدت أن أخرج من الصلاة عدة مرات بسبب صوتك، احكِ لي، أهو نفس الرجل الذي كنت تراه في السابق؟

اعتدل في جلسته ليجيبها:

- نعم هو نفس الكابوس، وذلك الشخص الذي لا أعلم عنه شيئًا، لكن هذه المرة رأيت ملامح وجهه واضحة عكس كل مرة.. أريد أن أخبرك أمرًا، لقد كُلفت بقضية ليلة أمس، قُتل شاب داخل أحد البيوت التي يدعي سكان الحي أنها مسكونة بقبيلة كاملة من الجان يسمونها «الطوارق»، أنتِ تعلمين أنني لا أؤمن بأن الجان يمكنه أن يقتل إنسانًا، الغريب في الأمر أنني رأيت هناك صورة معلَّقة لشخص كنت أشعر

بشيء غريب تجاهه ولكن الآن تأكدت أنها لنفس الشخص الذي أراه في كوابيسي، لا أعلم حقًا أهو تشابه فقط أم أن عقلي يتلاعب بي؟!

صمتت أمه قليلًا ثم بدا عليها القلق.

- أين يوجد ذلك البيت؟

أراد (مراد) أن يروي لها لكن أصدر هاتفه صوت اتصال قادم، أخرجه من جيبه ليجد (شريف) يتصل به، وضع السماعة على أذنه مجيبًا:

- شريف، ما الأمر؟ اهدأ قليلًا لا أستطيع فهم ما تقوله، اهدأ.

استمع (مراد) إلى ما يقال فتغيرت ملامحه إلى الغضب ثم أغلق الهاتف ونظر إلى أمه قائلًا:

- يجب أن أتحرك حالًا، لقد وقعت جريمة جديدة في نفس البيت.

تركها واتجه إلى باب المنزل مسرعًا، طلب المصعب وظلَّ واقفًا قليلًا حتى وصل، دخل إلى المصعد وقبل أن يهبط رأى ذلك الشخص الذي رآه في الكابوس يمر من أمام المصعد وهو ينظر إليه..

هبط المصعد وفتح الباب مهرولًا إلى السلالم وهو ممسك بالسلاح، أخذ يصعد دورًا تلو الآخر يبحث في داخله عن ذلك الرجل لكنه لم يجده حتى الدور الأخير. مسح العرق ثم هبط السلالم وهو يدخل السلاح الناري داخل سترته.

***

هبطت (منال) من سيارتها أمام مبنى كبير بواجهة زجاجية مكتوب عليه جريدة الجدار، حملت حقيبة يدها وأمسكت بحقيبة «اللاب توب» ثم توجهت إلى باب المبنى وهي تشير إلى الحارس الذي بادلها بابتسامة وفتح لها الباب.

وقفت أمام المصعد في انتظار وصوله وسط عدد من الموظفين، اقترب منها صديقها في العمل الصحفي الشهير (ماجد زكريا) في قسم الحوادث، نظرت له في ودٍّ وبادلها النظرة وابتسم لها، وصل المصعد ودخلا سويًا وهما مازالا يتبادلان النظرات.

توقف المصعد إلى دور قسم الحوادث وهبطا معًا واتجه كلٌّ منهما إلى مكتبه، أخرجت (منال) «اللاب توب» وفتحته ثم بدأت في كتابه مقالة عن جريمة بيت المتولي، وقبل أن تبدأ توجهت إلى «الكوفي ماشين» الذي يقع في آخر الرواق وأعدت كوبًا من مشروبها المفضل «أميركان كوفي» وعادت لتجد (ماجد) يقف أمام «اللاب توب» الخاص بها وينظر لها

وهي تقترب في تعجب:

- هل حصلتِ على أي معلومات عن تلك الجريمة؟ لم يستطِع أي صحفي أن يصل إلى معلومة واحدة حتى أنا.

وضعت (منال) الكوب أعلى المكتب واغلقت «اللاب توب» وهي تدفع (ماجد) برفق إلى الخلف وتخرجه خارج المكتب الزجاجي الخاص بها وتغلق الستائر وهي تبتسم. ابتسم (ماجد) من ذلك التصرف واتجه إلى مكتبه الزجاجي هو الآخر وأغلق ستائره.

بعد عدة ساعات فتحت (منال) باب مكتبها الزجاجي ورفعت الستائر وهي تحمل عدة أوراق مكتوب أعلاها «جريمة بيت المتولي»، تحركت بين زملائها بفخر وهي في طريقها إلى مكتب مدير التحرير الذي كان معلّق عليه لافتة (كريم فراج) مدير التحرير، طرقت الباب فأشار لها من خلف الزجاج أن تدخل.

فتحت الباب واتجهت إلى المكتب ومدت يدها بالورق ثم جلست وهي تقول:

- هذا خبر عن مقتل شاب أمس داخل بيت يسمى المتولي، وقد تحدثت إلى الجيران وعلمت منهم أنه بيت سيء السمعة بسبب ادعائهم أن الجان يسكنه بل قبيلة كاملة من

الجان، يعد هذا الخبر سبقًا صحفيًا ولم يتمكن سواي من الوصول إلى تلك المعلومات حتى الآن.

أمسك (كريم) بالمقال وقرأه كاملًا ثم نظر إلى (منال):

- أعلم أنك من أكفأ الصحفيين لدي، لقد كان والدك كذلك في مثل سنك قبل أن يصبح أكبر وأشهر صحفي في الوطن العربي، لقد تعلمت منه الكثير والكثير وقد حان دوري الآن في إرشادك كما فعل معي طوال حياته.

ابتسمت (منال) وهي تتذكر والدها الراحل منذ سنوات قليلة ثم قالت:

- أشكرك على دعمك الدائم، هل حاز المقال على إعجابك؟

وضع (كريم) الورق أعلى المكتب مبتسمًا:

- بالتأكيد، أنا موافق على نزوله في أول صفحة أنه سَبْق صحفي بحق...

قطع كلامه صوت هاتف يرن قادمًا من جيب سترتها، أخرجته مسرعة وهي تعتذر فأشار لها (كريم) أن تجيب، ابتسمت له مجاملة ثم أجابت:

- جريمة أخرى، أين وقعت؟

أخذت تستمع إلى ما يقال ثم أجابت:

***

رأس مفصولة عن باقي الجسد الذي يتوسط صالة بيت المتولي بينما يلتف حوله رجال البحث الجنائي والطب الشرعي، الدماء متناثرة في كل مكان وما أشبه الليلة بالبارحة، لكن تلك المرة الجريمة أبشع وأقوى من سابقتها.. ما الذي يحدث داخل ذلك المنزل، ما هيئة تلك القوة التي يمتلكها أحدهم كي يتمكن من فصل رأس رجل بالغ بسهولة هكذا.

الحيرة والخوف واضحان على معالم الطبيب الشرعي ومساعديه، الخوف واضح على أوجه الجميع وداخل أعينهم، أصبح الآن لديهم يقين أن البيت مسكون بالجان من دون شك، رجال الشرطة تأثروا بكلام الجيران وأصبحوا يتناقلونه فيما بينهم، الجيران أصيبوا بالهلع أكثر من ذي قبل.. لقد تحولت الأسطورة إلى حقيقة مفزعة، عاد الشيطان الخامد إلى ثورانه مع دخول (راشد) إلى البيت، كم مرة حذر الشيخ (بدر) الجميع من الوقوع في خطأ مثل ذلك، كان يخشى أن يحدث ما حدث، بدأ البيت بالقتل من جديد بعد أن قتل كل نسل المتولي في السابق، يبدو أنه عاد كي يروى ظمأه بعد سنين طويلة، مَن الذي أيقظ المارد من داخل قبره، اللعنة على الجهلاء والطماعين، أي كنز يبحثون عنه، أي كنز

يستحق كل تلك الدماء.

وقف الشيخ (بدر) أمام البيت وهو يقرأ بعض الآيات وينظر إليه بغضب ممتزج بالخوف، ثم اقترب من ذلك العسكري الذي سمع ورأى كل شيء وهو الآن في حالة صدمة، أعطى له بعض الماء ومسح على رأسه وهو يقرأ له القرآن، ابتعد عنه عندما رأى سيارة الرائد (مراد) تصل إلى المكان، بدا عليه الغضب والحيرة، هبط من سيارته مندفعًا في اتجاه العسكري وجذبه من ملابسه بقوة غير عابئ بما أصابه وأخذ يلقي على مسامعه العديد من الأسئلة التي لم يجِب عن أي سؤال منهم، فقط دمعت عيناه وأخذ يتمتم بكلامات غير متناسقة:

- شيطان.. نار .. دم.. صراخ.. الطوارق.

استوعب (مراد) أن ذلك الشاب لن يتمكن من الحديث الآن فأشار إلى (شريف) أن يأخذه بعيدًا عن الزحام ليستريح حتى يتثنى الحديث معه وأن يخلي تلك المنطقة المحيطة بالبيت، في الحال بدأ (شريف) في إبعاد الصحفين والجيران عن المكان ودفع بعدد كبير من العساكر ليلتفوا حول البيت من كل جانب.

نظر (مراد) إلى البيت من الخارج وتذكر الكابوس الذي رآه منذ عدة ساعات ثم تماسك واتجه إلى الباب، تحرَّك بين

أفراد المباحث الجنائية واقترب من الجثة، وضع منديلًا أمام فمه وأنفه عندما رأى الرأس المفصولة عن جسدها، اقترب من الطبيب (عمر) قائلًا:

- أرى علامات الحيرة على وجهك، أهي بسبب تلك الرأس أم أمر آخر؟

نظر (عمر) إليه قائلًا:

- ذلك الرجل قُتِل قبل رشاد بيوم على أقل تقدير، لقد دخلت الجثة في حالة الترمم.

لم يستوعب (مراد) ما قاله. فسأل:

- هل يمكنك أن توضح أكثر؟

وقف الطبيب (عمر) وابتعدا سويًا عن الجثة ليشرح له:

- ذلك الشخص قُتِل قبل رشاد بيوم أو بيومين على الأقل.

تغيرت ملامح (مراد) إلى الغضب ومسح على وجهه قائلًا:

- وكيف لم نجدها أمس مع جثة رشاد؟ هل تقصد أن جريمة القتل تمت منذ يومين ثم نقل أحدهم الجثة إلى هنا؟

مسح (عمر) على شعره ليرد:

- من الوارد، لكني سأحتاج إلى وقت كي أتأكد من ذلك، أنا

فقط لا أعلم ما الذي يحدث داخل ذلك البيت؟ أنا أشعر أن هناك أمرًا غريبًا بشأن ذلك البيت وبشأن الجثتين، أمس أثناء التشريح تـ...

قاطع حديثهما أحد أفراد الشرطة عندما اقترب من (مراد):

- مراد باشا، عذرًا على المقاطعة لكننا وجدنا جثة أخرى في الدور السفلي.

نظر (مراد) إليهما واتجه مباشرة إلى الدور السفلي ويتبادر إلى ذهنه ما حدث معه أثناء الكابوس، لكنه الآن ليس وحيدًا كما أنه لا مجال لإظهار الخوف، هبط السلالم بحذر ثم تحرك خلف الضابط لتقع عينه على جثة أخرى لرجل يجلس أرضًا وقد اخترق صدره أربعة أسياخ من الحديد، تجاوزه (عمر) واتجه مباشرة إلى الجثة ثم أخذ يعاينها:

- تلك الجثة مقتولة منذ ساعات قليلة يا مراد باشا، أعتقد أن أمرًا غير مفهوم يحدث هنا حقًا، هل تصدقني الآن.

عم الصمت لدقائق ثم تركهم (مراد) وصعد إلى أعلى وخرج من المنزل متجهًا إلى سيارته، فتح الباب ليجلس بداخلها وأخرج علبة السجائر، اختلطت الأمور عليه وهو يحاول ربط الخيوط بعضها ببعض لكنه لم يتمكن من إيجاد شيء، أخرج واحدة ثم أشعلها وهو شارد الذهن ثم نظر

نظر (مراد) إلى الشيخ ليسأله:

- هل يمكنك أن تمر على مكتبي مساء اليوم كي أتحدث معك قليلًا؟ لدي بعض الأسئلة التي أريد طرحها عليك.

ابتسم الشيخ وقال:

- بالتأكيد سأفعل، لقد طلبني الضابط شريف من قبل وأخبرني بميعاد الحضور.

نظر الشيخ (بدر) إلى ساعة يده وأردف:

- لقد حان وقت الأذان، السلام عليكم.

اعتدل (مراد) وأغلق باب السيارة وتحرك في اتجاه البيت وهو ينظر إليه بغضب وخوف.. ويقول بداخله: «لقد بدأت بكرهك حقًّا».

***

وقف الأستاذ (فريد كارم) أمام باب منزل الكاتب (ناصر المهدي) وضغط على زر الجرس وانتظر للحظات، فتح الباب وظهر من خلفه (ناصر) وهو ينظر إليه بوجه جامد الملامح ثم يشير له بالدخول وهو يلقي بنظره إلى الخارج في ترقب.

لاحظ (فريد) ما يفعله (ناصر) فاقترب منه ووضع يده على كتفه:

- أنا أتيت وحيدًا، لا تقلق، ما الذي تبحث عنه في الخارج؟

التفت إليه (ناصر) وأغلق الباب وتحركا سويًا حتى غرفة المكتب، جلس (ناصر) خلف مكتبه بينما جلس (فريد) على الطرف الآخر وأخرج ظرفًا به مبلغ مالي وعدة أوراق تمثل العقود الخاصة بالرواية، وضعهم أمامه على المكتب قائلًا:

- مقدم العقد كما اتفقنا في الهاتف مسبقًا، والعقود كتبت كما اتفقنا أيضًا.

نظر (ناصر) إلى الظرف والعقود بعدم اكتراث ووقف واتجه إلى الشرفة وفتحها ليدخل الهواء البارد سريعًا وتسبب في تطاير الستائر والأوراق، أشعل سيجارة وشرد قليلًا، وقف (فريد) واتجه إلى صديقه الذي يعرفه منذ عدد سنوات لم يعد يتذكرها، أشعل سيجارته الخاصة ماركه «ال إم» وصمت للحظات ثم قال:

- أنت تعي جيدًا أننا لسنا مجرد كاتب وناشر يتعاونان كل عام على رواية جيدة، نحن أصدقاء منذ زمن طويل، أريد منك أن تتجاوز تلك الصدمة وتكمل حياتك، شخص مثلك بتلك الموهبة والقبول بين القراء والناس لا يمكن أن يظل هكذا حبيس منزله خوفًا من أمر مجهول.. اسمعني جيدًا، ما حدث قد حدث يا ناصر عليك أن تفكر في القادم، في

المستقبل.

نظر (ناصر) إليه ورسم ابتسامة حزينة قائلًا:

- أي مستقبل الذي تتحدث عنه يا فريد، أنا فقدت كل شيء، أنا لم يعد لدي أي رغبة في الحياة بعد ما حدث، لم يعد يربطني بذلك العالم الكئيب المؤلم سوى شيئين، أحدهما الكتابة والآخر أنت تعلمه جيدًا، أرجوك كف عن نصيحتي وإرغامي على أمر لا أريده، اترك لي حياتي وعش حياتك كما يحلو لك.

ظهرت معالم الأسى على وجه (فريد) وقد لاحظها (ناصر) فأكمل:

- على كل حال أنا أشكرك لأنك لم تيأس مني قط رغم طريقتي الفجة والجافة معك، لكنك قلت، أنت صديقي الوحيد ويجب عليك تحملي.

ابتسم (فريد) ثم مسح على كتف صديقه وقال وهو يخطو إلى الداخل:

- تعالَ إلى الداخل كي نتناقش في روايتك الجديدة، جمهورك الغفير في الانتظار وأنا متشوق حقًا لقراءة رائعتك الجديدة.

ألقى (ناصر) السيجارة من أعلى، وقبل أن يدخل وقع بصره على شخص يقف داخل إحدى الشُّرف في العقار المقابل له، يحدق به بطريقة مريبة، دخل (ناصر) وأغلق الشرفة ثم قال:

- قبل أن نتحدث عن الرواية سأذهب لأعد فنجانين من القهوة، أنت تعلم مدى براعتي في إعداد القهوة.

أشار له (فريد) موافقًا وفور أن خرج صديقه، أخذ يقلِّب ناظره في كل مكان ثم انتبه إلى وجود شيء أعلى المكتبة فاتجه إليها ومدَّ يده ليلتقط رواية مكتوب عليها الطوارق ويكسوها التراب، مسح التراب من فوقها وهو يقول داخل عقله: «لا أعلم حقًّا يا ناصر لمَ توقفت عن كتابة تلك السلسلة لقد حققنا مبيعات كبيرة حينها».

فتح أول صفحة فسمع صوتًا غريبًا قادمًا من الخارج، شعر بالخوف وفجأة فتحت الشرفة بقوة جراء رياح شديدة هبت في الخارج، فترك الرواية أعلى المكتب واتجه مباشرة إلى الشرفة ليغلقها من جديد ثم عاد إلى المكتب لكنه لم يجد الرواية، وعندما بحث عنها وجدها قد عادت إلى مكانها السابق أعلى المكتبة، فشعر بالرهبة واتجه إلى المطبخ حيث صديقه (ناصر).

***

وصلت سيارة (منال) إلى شارع المتولي وهبطت منها وهي تشير إلى (ماجد) أن يتبعها وهي تحمل «الكاميرا» ومسجل الصوت، تحركت خطوات إلى داخل الشارع لتجد زحامًا شديدًا من قبل الصحفيين فنظرت إلى (ماجد) الذي قال:

- يبدو أننا وصلنا متأخرين، لقد خسرنا السبق تلك المرة.

ابتسمت له (منال) متحدثة:

- لا تقلق، فالشرطة تغلق كل الطرق في وجه الصحافة لكنني لدى الطريق والمصدر الموثوق.

اتسعت بسمة (ماجد) واتبع (منال) التي أخذت تتحرك بين الصحفين حتى وصلت أمام محل «صلاح المكوجي»، سحبت كرسيًا من الداخل وجلست فوقه وفعل (ماجد) المثل وهو متعجب، لحظات وحضر (صلاح) وفور رؤيته لها اقترب منها قائلًا:

- إلى الداخل حتى يتثنى لنا الحديث بحرية دون أن يسمعنا أحد، هناك ضابط شرطة يأمر أهل الحي أن يصمتوا وأن لا يتحدثوا إلى الصحافة.

أنهى كلماته وأدخل الكراسي إلى المحل وأشار لهم أن

يتبعوه ففعلوا، أغلق المحل عليهم من الداخل ليقول لهما:

- هكذا أفضل، قبل أن أخبرك بما حدث اليوم أخبروني أين المال؟

أخرجت (منال) بعض النقود وأعطتها إليه، أخذها بلهفة وأخذ يتفقدها ثم وضعها داخل جيبه أمام ناظر (ماجد) الذي بدا عليه الغضب، نظر إلى (منال) في لوم لكنها أشارت له أن يصمت.

جلس (صلاح) ليقص عليهما:

- أثناء الليل وبعد أن رحل كل رجال الشرطة سمعنا جميعًا صراخًا قويًا قادمًا من بيت المتولي، فخرجنا مسرعين لنجد العسكرى يبكي وهو يشير إلى البيت المفتوح بابه، وبالداخل كان هناك رجلان يصرخان بقوة وكأنهما يُحرقان أحياء، ظلَّ الصوت قادمًا من الداخل لبعض الدقائق حتى انتهى ولم يقوَ أحد على الدخول أو الاقتراب من البيت.

نظر (ماجد) إلى (منال) ونظر إليه ليسأله:

- هل تعلم هوية الرجلين؟

ابتسم (صلاح) ومدَّ يده في اتجاه (ماجد) الذي فهم ما يرمي إليه، أخرج بعض المال وأعطاه إياه فقال:

- كان الاثنان من رجال رشاد، سعيد عصفورة وسيد الحامولي، كانا مجرمين متمرسين ويكرههما الجميع، يبدو أنهما لم يتعظا من موت رشاد ودخلا البيت ليلًا بحثًا عما كان يبحث عنه رشاد ولاقيا نفس مصيره.

انتبهت (منال) إلى كلامه فسألته:

- وما الذي كان يبحث عنه رشاد ومِن بعده رجاله؟

نظر لهم بجشع فقال (ماجد):

- لقد أعطيناك مالًا كثيرًا حتى الآن، تحدّث.

تغيرت ملامح وجه (صلاح) قائلًا:

- لكل شيء ثمنه وأنا أخاطر معكم الآن، لو علمت الشرطة بأنني أتحدث إلى الصحافة سيكون مصيري السجن.

فتحت (منال) حقيبتها وأخرجت بعض النقود وأعطته إياها فأخذهم ليكمل حديثه:

- كانوا يبحثون عن الكنز، كنز تركه المتولي لعائلته مدفون تحت البيت، لم يعلم أحد ماهيته أهو ذهب، أم مال وفير، أم آثار، أم كتب لتسخير الجان والمردة.

***

داخل مكتب التحقيقات جلس الرائد (مراد) وهو يتحدث إلى خطيبته (رشا) عبر هاتفه، ويبدو عليه الإرهاق الشديد والغضب وهو يقول:

- أنا لا أؤجل الميعاد بإرادتي، تلك القضية التي كُلِفت بها ستطول.. أنا أعلم جيدًا أنها لن تحل ببساطة، يجب أن نؤجل الزفاف شهر على الأقل، أنا غير مستعد في الوقت الحالي لأخبرك عن الميعاد المؤكد، أحتاج مزيدًا من الوقت يا رشا.

يستمع إلى ما يقال فيزداد غضبًا ويقف منفعلًا:

- استمعي إليَّ جيدًا، ما يحدث طبيعي في عملي أنتِ كنتِ تعلمين كل شيء عنه قبل أن تتم الخطبة، تعوّدي على تلك الأمور من الآن ومستقبلًا، أنا لن أترك التحقيقات وأظل أتحدث معكِ على الهاتف كي تتفهمي ما يحدث، اسمعيني جيدًا سأنهي المكاملة وأتحدث معكِ لاحقًا.. سلام.

انتهى من قوله ثم أغلق الهاتف ووضعه داخل درج المكتب وأغلق عليه بعصبية، أخرج علبة السجائر وأشعل واحدة وارتفع صوته مناديًا:

- شريف، أدخِل الشهود وأهالي الحي واحدًا تلو الآخر سنبدأ الآن، لا وقت لدينا لنضيعه.

دخل (شريف) واستمع إلى ما قاله ثم خرج ودلفت إلى

المكتب من بعده امرأة في منتصف الثلاثينيات ترتدي السواد، يبدو عليها الجمال والأنوثة رغم الحزن الواضح على ملامحها، اقتربت من المكتب فأشار لها على أن تجلس ففعلت ورفعت عينيها لتلتقي بعيني (مراد) وهي تقول:

- أرجو أن ننتهي سريعًا من التحقيقات، فأنا لم أنَم منذ يومين.

أومأ مراد بالموافقة وأشار إلى (شريف) أن يجلس ثم قال:

- اسمك وسنك وعلاقتك بالمجني عليه.

دمعت عيناها ثم قالت:

- اسمي ليلى سعيد طه، سني 33 عامًا، والمجني عليه رشاد كان زوجي.

نظر (مراد) إلى ملامحها الجميلة وصمت قليلًا ثم سألها:

- متى آخر مرة رأيتِ بها المجني عليه؟

مسحت دموعها بمنديل:

- منذ أسبوع تقريبًا، رشاد كان يتغيب كثيرًا عن البيت بسبب أنه كان...

قاطعها (شريف) قائلًا:

- لص وبلطجي، لا ذنب لكِ بما كان يفعله، نحن نعلم كل شيء عن طبيعة عمله ومدى كره الجميع له.

انهمرت دموعها أكثر ثم تماسكت:

- رشاد كان حاد الطباع لا يخشى أحدًا، كان يحصل بالقوة على أي شيء يريده بمعاونة رجاله سعيد وسيد الحامولي والآن هم معًا جميعًا في نفس المشرحة، آخر محادثة دارت بيننا كان يتحدث عن كنز المتولي الموجود داخل البيت وهو في حالة سكر وأنه عزم أمره على استخراجه، حذّره الجميع لكنه كان مصرًّا على ذلك الأمر وكأن شيطان يسوقه إلى البيت رغمًا عنه.. تشاجرت معه وطلبت منه أن لا يذهب خوفًا على حياته، فصفعني وترك المنزل ولم أعلم عنه شيئًا إلا ليلة الحادث.

نظر (مراد) إلى (شريف) ثم قال:

- يبدو من طريقة كلامك أنكِ لم تكوني تحبينه وأنه تزوجك دون إرادتك.. هل هذا صحيح؟

رفعت (ليلى) عينيها إلى (مراد) لتنظر داخل عينه مباشرة:

- صحيح، لقد تزوجته خوفًا من بطشه ولم يستطع أحد منعه، والآن لقد ماتَ تاركًا لي الكثير من الذكريات المؤلمة والسمعة سيئة وبعضًا من المال سينفذ خلال أيام... هل

انتهينا؟

أشار لها بأن تغادر وهو يقول:

- نعم، لقد انتهينا، يمكنك الرحيل وإن احتجنا أن نتحدث سنزورك في المنزل.

وقفت (ليلى) واتجهت إلى باب المكتب ثم التفتت:

- رجاء أن تغلقوا بيت المتولي وتبنوا سورًا حوله أو تهدموه، لقد بدأت لعنته وسيموت أناس كثر إذا لم تتحركوا سريعًا.

أنهت كلماتها وغادرت المكتب، وفور خروجها دخل الشيخ (بدر) وهو يسبّح على مسبحته وينظر بوجهه هادئ إلى الضابطين، أشار له (مراد) أن يجلس:

- تقابلنا سابقًا يا شيخ بدر، أنا أعلم مَن تكون، كل الذي أريد أن أعلمه الآن ما الذي تعرفه عن رشاد وعن الرجلين الآخرين، وأريد أن أعلم كل شيء عن ذلك البيت.

اعتدل الشيخ (بدر) في جلسته قائلًا:

- رشاد كان من أكثر شباب الحي شرًا وغدرًا وسُكرًا، لم ينج أحد من بطشه هو ورجاله، سرق الجميع وتسبب لهم بالعديد من المشاكل حتى والده مات في مشاجرة افتعلها رشاد

نفسه مع تاجر مخدرات سرق منه بضاعة بمبلغ مالي كبيرٍ ولك أن تتخيل أنه لم يحضر جنازته ولم يقف ليصلي عليه بل كان في أحد الكباريهات يسكر ويرقص مع فتيات الليل.. شيطان متجسد في آدمي، أعلم أنه لا شماتة في الموت لكنه نال ما يستحقه، أما بالنسبة لسيد الحامولي وسعيد عصفورة فهم يشبهون رشاد إلى حد كبير يختلفون عنه في الشجاعة والقلب الجريء، يمكنك أن تعتبرهم كلابه الضالة.

أصدر الشيخ (بدر) سعالًا شديدًا فأمر (مراد) أن يأتوا له بكوب من الماء، أمسك بالكوب وشرب الماء فهدأ السعال فأكمل:

- أما عن ذلك البيت الملعون.. بيت المتولي، لم أرَ في حياتي مكان يعج بالجان والمردة مثل ذلك البيت وكأنه بوابة مفتوحة على مصراعيها بين العالمين، لا أعلم ما الذي فعله المتولي داخل جدرانه لكنني أتذكر المتولي جيدًا، لقد مات بعمر تجاوز المائة وعشرين عامًا، حينها كنت طفلًا لم أتجاوز العاشرة من عمري، أعدت له جنازة كبيرة وحضرها رجال من كل صوب لكنهم عندما دفنوه اشتعل القبر وظل مشتعلًا لعدة أيام، كان موت المتولي حديث المنطقة لأعوام متتالية، أسطورة شيطان ظللت استمع إليها طوال حياتي حتى رأيت ما يحدث داخل البيت بأُم عيني.

دمعت عينه وكأنه يتذكر شيئًا ما يكره الحديث عنه:

- قبل سنوات طوال وفي إحدى الليالي قبل صلاة الفجر من عشر سنوات أفقت من نومي، توضأت واتجهت إلى المسجد، فور خروجي من المنزل شعرت أن هناك أحدًا ما يقف أعلى بيت المتولي، خيال ضخم غير واضح الملامح، اقتربت من البيت وأنا أشعر بالخوف يملأ صدري وارتفعت دقات قلبي لكنني عندما اقتربت كفاية لم أجد أحدًا يعلو البيت، تنهدت وحاولت أن اطمئِن نفسي لكنني عجزت ما زال نفس الشعور يحاوطني بأن أحدًا ما يراقبني عن كثب، التفتّ لأجد أمامي كيانًا أسود يسد الأفق لم أستطِع تمالُك نفسي وأغشي عليّ، ظللت أعاني طوال شهر من استحواذ شيطاني لم يفارقني حتى في منامي حتى أتى أحد الشيوخ وتمكّن من طرده من جسدي.

أنهى كلماته وأخذ يسعل بشدة وبدأت الدموع تنهمر من عينيه، نظر له (مراد) في تأثر:

- هل أنت بخير؟

اعتدل الشيخ ومسح دموعه بظهر يده وأومأ أنه بخير، نظر (مراد) إليه قائلًا:

- يبدو أنها ذكرى سيئة لن تُمحى من ذاكرتك، يمكن أن

تغادر إلى منزلك كي تنال بعضًا من الراحة وسنكمل حديثنا بعد ذلك.

حاول الشيخ (بدر) أن يبتسم لكنه فشل ووقف بجسد هزيل يترنح، اتجه إلى الباب وفور خروجه قال (مراد):

- شريف، أدخِل البقية تباعًا، يجب أن ننتهي من التحقيقات اليوم، أمامنا عمل شاق للغاية في انتظارنا، وبعد أن ننتهي أريدك أن تتصل بالمعمل الجنائي، أريد أن أرى تفريغ الكاميرات وأنا سأتصل بالطبيب الشرعي عمر لأعلم ما توصل إليه بعد التشريح.

(3)

«إن أردت الحقيقة فعليك بتجهيز الثمن المناسب لها، كذلك تسير الأمور مع كل شيء، إن أردت النور فعليك بمحاربة الظلام، وإن أردت الظلام فعليك بالابتعاد عن النور. للشيطان بصمته الخاصة عندما يريد أن يعلن عن وجوده، أعلم أنه لا يجب عليّ قول ذلك، لكنك الآن يجب أن تتبع خطوات الشيطان كي تصل إلى الحقيقة».

شتاء عام 1892 بالقرب من إحدى قرى الصعيد النائية

السماء صافية لا قمر فيها ولا مطر، تحرك (المتولي) في اتجاه الصحراء وهو يحمل شعلة من نار بيدٍ وبالأخرى يستند على عصاه، ويتبعه بعض رجال من أكابر البلد ومساعديهم وهم يحملون المشاعل خلفه، بعد رحلة شاقة وصل (المتولي) إلى بقعة أرض معينة ثم أشار لهم أن يقفوا في مكانهم دون حراك، أمسك بالعصا التي تحمل رأس ثعبان أسود وتركها أرضًا فتحولت إلى ثعبان كبير الحجم يصدر فحيحًا وأخذ يتحرك مسرعًا ليرسم مستطيل على الأرض، ثم رجع ليمسك به (المتولي) من جديد وعاد إلى طبيعته الخشبية. قرب (المتولي) الشعلة من طرف المستطيل فبدأ في الاشتعال وتحوَّل إلى نار متأججة، تراجع الرجال على أثرها بينما تخطاها (المتولي) ولم يصبه شيء.

مرت عدة دقائق وخفتت النيران وظهر (المتولي) وهو يقف أمام فوهة قبر فرعوني برزت من باطن الأرض، ظهرت معالم التعجب على وجه الرجال، أشار لهم أن يقتربوا فهرولوا في اتجاهه كتلاميذ إلى معلمهم، نظر لهم في تعالٍ.

- بعد عدة دقائق ستفتح لكم بوابة أكبر مقبرة فرعونية لم يرَ لها مثيلًا من قبل، كما اتفقنا، الثلث لي من كل شيء، لا تدخلوا قبل أن أدخل وأسمح لكم.

نظر الرجال بعضهم إلى بعض غاضبين، فنظر لهم وقال بصوت مرتفع:

- أنا لن أتهاون في قتل أحدكم أن خالف ما أقول، من منكم سيحافظ على العهد؟ أخبروني الآن أو ارحلوا جميعًا إن استطعتم.

بخوف رفعوا جميعهم أيديهم رغم تردد رجل وقد لاحظ (المتولي) تردده لكنه لم يكترث له، ابتسم وضرب الأرض بعصاة عدة مرات فانشقت وظهرت معالم هيكل فرعوني من بين الرمال، أشار بيده إلى الباب الحجري ففتح وطلَّ من داخله رأس ثعبان عملاق، أفزع الجميع وما إن رأى (المتولي) حتى تراجع واختفى داخل المقبرة، تقدَّم (المتولي) بخطوات واثقة ودخل إلى القبر ثم أغلق عليه من الداخل.

في الصباح فتح القبر وخرج منه (المتولي) ولم يصبه شيء، اعتدل الرجال من جلستهم وخرجوا من داخل خيامهم ثم اتجهوا نحوه وهم ينظرون إليه في خوف، أشار لهم أن يدخلوا وهو يقول:

- رحل الرصد مؤقتًا، المقبرة ملكنا، اقتسموا كما أمرتكم واتركوا لي الثلث.

اتجه الرجال إلى داخل القبر وأخذوا ينقلون الآثار داخل

صناديق حتى انتهوا، أمسك أحدهم بتمثال فرعوني صغير ووضعه داخل جلبابه دون أن يلاحظ أحد ما فعله.

مرت عدة ساعات وكانوا قد انتهوا من المقبرة، اقترب (المتولي) منهم وقال:

- بينكم مَن أخذ ما لا يخصه، هذه آخر فرصة له قبل أن يلقى حتفه.

لم يجِبه أحد فنظر إلى وجوههم المتعرقة، ثم اتجه مباشرة إلى ذلك الرجل الذي يخفي التمثال الصغير.

- لمَ فعلت ذلك؟ ألا يكفيك ما ستحصل عليه، أنت لا تستطيع تخيُّل ما سيصيبك، اهرب الآن.

نظر الرجل إلى (المتولي) في خوفٍ ثم هرول على غير هدى وفجأة خرج الثعبان الضخم من أسفل الرمال وابتلعه وعاد مرة أخرى إلى باطن الأرض وسط ذهول وفزع من بقية الرجال.

اتسعت بسمة (المتولي) قائلًا:

- لا أريد أن يصاب أحدكم بمصاب هذا النجس، اتبعوني.

أنهى كلماته ثم تحرك إلى جبل أسود قاتم يطل وحيدًا، ومن خلفه الشمس وهي تسقط وتلقي بآخر أنفاسها على

الصحراء فتحيلها إلى اللون الأحمر وكأن الصحراء قد ارتوت بدماء أحد البشر حتى شبعت.

توقف بالقرب من ذلك الجبل وأمر رجاله أن يقفوا عند نقطة معينة ثم أكمل هو المسير مستندًا على عصاه، وصل عند سفح الجبل، نطق بعدة كلمات فانشق الجبل وخرج منه ذلك المتشبه بالثور ضخم الجسد، اقترب منه بسرعة ثم وقف أمامه ينفث نارًا من أنفه:

- أرى أن قوتك أصبحت أضعاف ما كانت عليه منذ شهور، أنت تترقى بسرعة لم نكن نتوقعها، ما الذي أتى بك إلى هنا الآن.

اقترب المتولي من ذلك الثور:

- أريد الدخول إلى بيتكم، أريد أن أرى البوابة بأم عيني، أريد أن أعرف كل شيء عن عالمكم.

سمع صوت زمجرة قادمًا من صدر الثور:

-هل أحضرت ما يسمح لك بالمرور؟

أومأ المتولي بالموافقة ومدَّ يده بزجاجة صغيرة تحوي سائلًا أحمر بداخلها، أمسك ذلك الثور العملاق بالزجاجة ونظر له في غضب، أشار إلى المتولي أن يتبعه ثم التفت

ودخل إلى بطن الجبل ومن خلفه المتولي ثم أغلق عليهم وكأن شيئًا لم يكن.

***

شتاء عام 2010

مكتب التحقيقات

ظهرت معالم التعجب على وجه كلٍّ من الرائد (مراد) والملازم (شريف) وهم ينظرون إلى «اللاب توب» الذي يعرض جزءًا من تفريغ إحدى «الكاميرات» التي سجلت شيئًا مريبًا حدث ببيت المتولي أثناء الحادثة، نظر (شريف) بتعجُّب إلى (محمد خليل) ذلك الرجل الأربعيني حليق الرأس، هادئ الطباع ذي نظرات تحمل الكثير من المعاني المتداخلة، يرتدي نظارة طبية طوال الوقت بسبب عمله الدائم أمام شاشات «الكمبيوتر»، وهو يعد واحدًا من أمهر الرجال الذين يعملون داخل إدارة المعمل الجنائي وهو مَن أفرغ «الكاميرات» وأعدَّ تلك المقاطع لعرضها على الضابطين.

مرت عدة لحظات ثم قال (مراد):

- محمد رجاء أعد ذلك المقطع مرة أخرى.

ضغط (محمد) على «الكيبورد» ثم أعاد المقطع وأدار الشاشة ليظهر بداخلها (رشاد) وهو يقطر دمًا يبدو عليه أنه أصيب بشدة وهو يحاول الخروج من باب بيت المتولي مترنحًا، ثم فجأة تمتد يدٌ غير آدمية سوداء اللون من الداخل وتوقعه أرضًا تحاول سحبه إلى الداخل، يحاول (رشاد)

التشبث بالباب لكنه لا يتحمل ويجر إلى الداخل تاركًا آثارًا للدماء على عتبة الباب.

أوقف (مراد) التسجيل ثم أشعل سيجارة ومسح على رأسه في عدم تصديق لما يراه قائلًا:

- أخبرتني عبر الهاتف وكتبت في تقريرك أن التسجيل صحيح ولا يوجد به فبركة.

نظر (محمد) إلى الضابطين وخلع نظارته فبدا وجهه أصغر سنًا ليجيب:

- ليس ذلك التسجيل فقط، هناك عدة مقاطع تعرض أشياء غريبة تحدث داخل البيت، لقد قضيت الليلة السابقة أفرغ كل الكاميرات الموجودة بالقرب من بيت المتولي واستطعت أن أحصل على عدة زوايا مختلفة، ورأيت ما يشيب له الشعر وما أفزعني حقًا ذلك المقطع.

أمسك (محمد) «باللاب توب» وشغل مقطعًا آخر وأدار الشاشة من جديد ليصبح مواجهًا للضابطين وظهر على الشاشة خيال يتحرك في الدور العلوي للبيت، ثم ظهر وجه غير آدمي ينظر من خلال الشباك المحطم زجاجه إلى العسكري الذي يقف بالقرب من السور ثم فجأة اختفى ذلك الكيان.

ظهرت معالم الخوف على وجه (شريف) قائلًا:

- لقد أخبرت سيادتك من قبل أن هناك أمرًا مريبًا داخل ذلك المنزل، كل تلك الأقوال الخاصة بالشهود والجيران حالة الجثث والآن تلك المقاطع، وما زلت لا تصدق أن ما يحدث هناك شيء شيطاني لا علاقة له بعملنا كضباط، أنا أرى أن نكتب تقريرًا مفصلًا ونرفق به تلك المقاطع ونرسلها إلى اللواء (عاطف يونس) وهو من يقرر في نهاية الأمر.

أشار الرائد (مراد) إليه أن يصمت ثم قال:

- محمد، أريد منك أن تفحص تلك المقاطع مرة أخيرة لنتأكد من صحتها مائة بالمائة وأبلغني أي شيء جديد تصل إليه.

أومأ (محمد) بالموافقة ثم ارتدى نظارته واتجه إلى باب المكتب فتحه ثم خرج وأغلقه خلفه، وقف (مراد) واتجه إلى الشباك ثم أكمل تدخين السيجارة وألقاها إلى الخارج ونظر إلى (شريف) الذي بدا خائفًا.

- لقد عملنا لعدد ساعاتٍ كثيرة، اذهب إلى المنزل كي تستريح ونلتقي غدًا صباحًا في المشرحة لنتحدث مع الطبيب الشرعي عمر، لا أريد أن آخذ قرارات غير مدروسة يا شريف، أنت ضابط جيد لكنك تفتقد إلى الخبرة، ما زال

هناك أمر غير مفهوم في قتل هؤلاء الثلاثة، لمَ الآن؟ ولمَ هما بالأخص؟ أنا لدي الكثير من الأسئلة وبعد أن أجد إجابتها سأفعل ما اقترحته علي منذ دقائق..

أراد (شريف) أن يتحدث لكن الأخير أعطاه ظهره وهو يقول:

- اذهب إلى المنزل ونَلْ قِسطًا من الراحة، هذا أمر، ستتحدث غدًا.

وقف (شريف) واتجه إلى باب المكتب ليغادر، ظلّ (مراد) واقفًا لعدة دقائق ثم عاد وجلس وأخذ يتفقد المقاطع من جديد ويدوّن بعض الملاحظات.

***

داخل جريدة الجدار اجتمعت الصحفية (منال) وصديقها (ماجد) مع رئيس التحرير (كريم) وعرضوا عليه كل ما توصّلوا إليه من معلومات عن المجني عليهم وعن تاريخ ذلك المنزل وما حدث به من قبل وعن الكنز الذي كانوا يبحثون عنه.

صمت (كريم) للحظات يقرأ ما كتب في المقال الجديد وقال:

- لا نستطيع نشر ذلك الخبر.

ظهرت معالم التعجب على وجه (منال) وسألته:

- لماذا يا أستاذ كريم؟ إنه سبق صحفي.

وضع (كريم) قبضته أمام فمه وهو يفكر.

- ينقصنا الكثير من التفاصيل، صور للبيت من الداخل، صور للجثث، بقع الدماء، أداة الجريمة، تلك التفاصيل مهمة للغاية.

تحدث (ماجد) سريعًا:

- كيف نحصل على تلك الصور؟ الشرطة لا تسمح بمرور أي صحفي إلى داخل المنزل؟

ابتسم (كريم) وقال:

- مَن طلب القمة وجد طريقه الخاص.. وأنا أرى أمامي أكفأ صحفيين في قسم الحوادث ليس في تلك الجريدة فقط بل في مصر وربما في الوطن العربي.

نظر (كريم) إليهما فوجد الصمت ردًا فاستكمل كلامه:

- والآن دعوني أكمل عملي وعندما تحصلون على تلك الصور أنا في الانتظار.

وقف الاثنان وغادرا المكتب وهما يجرجران خيباتهما، لقد أهدرا الكثير من مالهما الشخصي مقابل تلك المعلومات ولم تكن كافية إلى رئيس التحرير، جلست (منال) على مكتبها وجلس على الطرف الآخر (ماجد) يفكران في كيفية الحصول على تلك الصور ليتحدث (ماجد):

- لا أمتلك مصادر داخل المعمل الجنائي، ولا أعلم أي معلومات عن الطبيب الشرعي، ماذا عنكِ؟

ابتسمت (منال) وكأنها وجدت الحل.

- هناك حل واحد من أجل اكتمال السبق الصحفي الذي نتمناه.

نظر لها (ماجد) وكأنه فهم ما ترمي إليه:

- لا، لا، لن ندخل إلى البيت.

أشارت له (منال) أن يخفض صوته ثم اتجهت إلى باب المكتب وأغلقته وهي تقول:

- ماجد، أخفض صوتك، اسمعني جيدًا، إنها الطريقة الوحيدة، سندخل ونخرج من دون أن يرانا أحد، وسنفعل ذلك الليلة.

ابتلع (ماجد) ريقه.

- وماذا عن؟ ماذا عن الجان؟

نظرت له (منال) لتجيب:

- سنكتشف إذا ما كان يقال لنا حقيقة أم خيالًا، وأتمنى أن يكون من نسج خيال صلاح المكوجي كي نسترد أموالنا.. هل أنت معي في ذلك الأمر أم أذهب وحدي؟

أمسك (ماجد) بيدها ثم شعر بالحرج وتركها وهو يقول:

- بالطبع.. بالطبع سأكون معكِ، نحن شركاء الآن، هل تتذكرين؟

ابتسمت (منال) وظهر الخجل على وجهها وهي تقول بودٍّ:

- نعم أتذكر.

***

داخل المشرحة يقف (عمر) أمام الثلاث جثث المتراصين بجانب بعضهم البعض أعلى مناضد حديدية في خوف، يشعر أن هناك أمرًا ما مفزعًا متعلقًا بتلك الجثث، أزاح الغطاء عن وجه (رشاد) ثم أزاح الغطاء عن وجه (سعيد) وفعل المثل مع (سيد)، نظر إليهم جيدًا، بدا واضحًا من الوهلة الأولى أنهم تعرضوا لتعذيب شديد قبل القتل وأنهم لم يقتلوا معًا في نفس الوقت، سلط الإضاءات على الثلاث جثث لأنه أراد

أن يعيد تشريح جثة (رشاد) من جديد، أحضر أدواته ثم شغل الموسيقى على هاتفه كعادته وبدأ في التشريح.

العديد من الساعات قضاها في العمل الشاق وأخذ يدوّن الكثير من الملاحظات، أخذ عدة عينات وأجرى تحليلًا لهم داخل المعمل الملحق بالمشرحة، العرق يتصبب منه وهو يرى خيالات تدور حوله على فترات متفاوتة لكنه أرجع ذلك إلى الإرهاق وقلة النوم وإلى الضوء القوي المسلَّط على الجثث.

بعد عدة ساعات إضافية انتهى (عمر) من عمله وجلس منهك الجسد على مكتبه، خلع قفازيه والكمامة ثم أوقف الموسيقى وشرع في كتابة تقريره عن الثلاث جثث، فجأة ومن دون أن يشعر رآهم واقفين أمامه على بُعد خطوات منه في ثبات، سقط قلبه أسفل قدميه واندفع الأدرينالين داخل شرايينه فهب واقفًا وكتم صرخة كادت أن تخرج منه، أغمض عينيه محاولًا تهدئة أنفاسه المتعالية ثم فتحها من جديد ليجد عشرات الجثث تقف محيطة به، ثم لمح يدًا سوداء قاتمة تظهر من خلف إحدى الجثث وظهر بعدها قرنان لرأس تتعالى، ثم وجه قبيح لكيان مفزع نظر إليه مباشرة، صرخ في وجهه صرخة أسقطته أرضًا واضعًا يده أمام وجهه.

مرت لحظات لكن لم يحدث شيء، لم يمُت، لم يُصَب بأذى،

أزاح يده من أمام عينه ثم نظر فلم يجد أحدًا، الجثث ما زالت في أماكنها، لا وجود لكيان شيطاني ولا لجثث أخرى، ما الذي يحدث معه، ماذا أصابه؟ عقله لم يعد يعمل بالشكل الصحيح، وقف بقدمين ترتعشان وأمسك التقارير بخوف، ثم غادر غرفة التشريح وهو يترنح ويشعر بصداع قوي وما زالت الخيالات تراوده وتطارده عبر أروقة المستشفى.

وصل إلى باب المستشفى واتجه إلى سيارته وهو يخرج هاتفه يبحث عن رقم (مراد) ويتصل به، انتظر الإجابة ثم قال مسرعًا:

- أريد أن أقابلك، لقد انتهيت من التشريح وكتابة التقارير، لدي ما أريد قوله لك، هل يناسبك الليلة؟

***

نظر الرائد (مراد) إلى خطيبته (رشا) وهي تخرج من باب العقار التي تسكن فيه عبر زجاج السيارة وهي تقترب ثم قال عبر الهاتف:

- للأسف الليلة لن تكون مناسبة، سأقابلك في مكتبي في الغد مع السلامة.

أنهى المكالمة بينما كانت (رشا) تفتح باب السيارة وتركب بجانبه ويبدو عليها الغضب، نظر لها ثم قَبَّل يدها.

- أنتِ تعلمين جيدًا مدى حبي لكِ، بالبطع لا أحب أن أراكِ هكذا، لقد تركت عملي الليلة من أجل مصالحتك، هل يمكنك مسامحتي عما بدرَ مني من عصبية أمس؟

نظرت له (رشا) وتشبثت في ذراعه وهي تقول:

- أنا سامحتك بعد أن أغلقت في وجهي الخط مباشرة، أنا أتفهم مدى صعوبة عملك وما تقابله ولا أريد أن أكون عاملًا مشتتًا لك، لكنني أيضًا أستحق أن أحظى ببعض الوقت والاهتمام.

ابتسم لها قائلًا:

- هذا أمر مؤكد.

نظر إلى ساعته ثم أردف:

- تأخرنا على الدكتور هارون، أنتِ تعلمين أنه يسامح في أي شيء إلا التأخير.

انطلق (مراد) بسيارته وهو تارة ينظر إلى (رشا) المتشبثة بذراعه كطفلة وتارة أخرى إلى الطريق عبر المرآة الجانبية، ثم وقعت عيناه على انعكاس وجه (المتولي) يجلس في الكرسي الخلفي، ضغط على المكابح وسط ذعر منها، نظر خلفه فلم يجد أحدًا، كادت (رشا) أن تبكي من المفاجأة

فطمأنها ومسح على رأسها ثم قبَّلها ومسح على وجهه وتحرك بالسيارة من جديد.

بعد نصف ساعة وداخل عيادة الدكتور (هارون جبران) الطبيب النفسي وصلا، دخلا إلى العيادة التي كانت فارغة تمامًا، اتجها مباشرة إلى المكتب ثم طرقا الباب، فأتى صوت الطبيب (هارون) من الداخل:

- لقد تأخرتم عن الميعاد 10 دقائق.

دخلا سويًا واتجهت (رشا) إلى (هارون) وقبّلته ثم جلست بجانبه، بينما اقترب (مراد) منه وسلم عليه وجلس على الطرف الآخر من المكتب، لاحظ (هارون) الخوف على ملامحه فقال:

- رشا، هل يمكنك أن تعدّي لنا فنجانين من القهوة بنفسك؟

نظرت (رشا) إلى (هارون) وقد فهمت ما يريده.

- بالطبع يا أبي، سأترككما لتتحدثا قليلًا.

قبّلت رأس أبيها ثم نظرت إلى (مراد).

- أجب عن الأسئلة بصراحة فهو سيعلم مدى صدق إجاباتك بسهولة.

ابتسم لها وظلَّ يتابعها حتى خرجت من الباب، نظر من

جديد إلى (هارون) الذي بادره بسؤال قائلًا:

- أرى علامات الاضطراب على وجهك، أخبرني ما الذي يحدث معك.

تردَّد (مراد) في الحديث، أراد أن يتحدث لولا أنه رأى (المتولي) يقف خلف (هارون) ينظر له بغضب ثم تحرَّك وتوارى خلف الستار، وقف (مراد) واتجه إلى الستار وأخذ يبحث عنه وسط تعجب من (هارون) الذي وقف وحاول تهدئته وأجلسه وهو ينظر له في قلق، قال (مراد):

- كان هناك شخص يقف خلفك مباشرة ثم توارى خلف الستائر.

أشار له (هارون) أن يهدأ.

- اهدأ، فقط اهدأ وقل لي، ذلك الشخص رأيته من قبل أم هي أول مرة؟

نظر (مراد) إلى (هارون) وقال:

- نعم رأيته من قبل عدة مرات.

- هل تراه أثناء نومك أيضًا؟

- نعم.. رأيته من فترة طويلة داخل كوابيسى وعاد إليّ من جديد تلك الفترة.

- وما هذا التغير الذي طرأ على حياتك العملية تلك الفترة؟

مسح (مراد) على وجهه قائلًا:

- لقد كُلِفت منذ أيام بقضية جديدة شديدة التعقيد، أعتقد أنني أرهقت عقلي في التفكير المفرط بها، أنا بخير، أحتاج فقط أن آخذ قسطًا من الراحة.. أعتقد أن كلام الشهود أثّر على مخيلتي، تحدثوا عن الجان واسموهم الطوارق و...

قاطعة (هارون) مستغربًا:

- أقلت الطوارق؟! جان الطوارق؟

نظر له (مراد) في تعجُّب:

- نعم، ما الأمر؟

تذكَّر الطبيب (هارون) ذلك الاسم الذي تعلَّق بمريض ظلَّ يعالجه لسنوات.

- لا، فقط سمعت ذلك الاسم من قبل، قبل عدة سنوات من الآن، لقد كنت أعالج كاتبًا روائيًا كان يعاني من هلوسة سمعية وبصرية وتحدَّث عن جان وعن اسم الطوارق كثيرًا، بالمناسبة ذلك الكاتب تعرفه رشا جيدًا فهو كاتب شهير وينشر في نفس دار النشر التي تكتب لها رشا.. على أي حال أعتقد أنك بحاجة إلى الراحة..

فتح الباب ودخلت (رشا) تحمل صينية موضوع أعلاها فنجانين من القهوة وترسم على وجهها ابتسامة ساحرة، اقتربت من المكتب ووضعت الصينية فوقها قائلة:

- هل كل شيء على ما يرام الآن؟

أومأ الاثنان بالموافقة وقال (مراد):

- كل شيء على ما يرام، لا تقلقي، إنه ضغط عمل لا أكثر.

أنهى كلماته وأمسك بفنجان القهوة بينما ظل الطبيب النفسي (هارون) يرمقه بنظرات غريبة مترقبة.

***

غرفة مظلمة بستائر سوداء ثقيلة إلا من ضوء ضئيل قادم من الخارج ليقع على جسد (ناصر) الذي يتقلب فوق فراشة ويبدو أنه يعاني من كابوس مزعج، يدور حول نفسه يمينًا ويسارًا وهو يئن، يحاول النطق باسم أحد لكنه يفشل، يزداد أنينًا عندما يظهر شخص يرتدي بدلة يخرج من بين ثنايا الظلام ويقترب من الفراش ليتوقف بالقرب من (ناصر) الذي يعاني بشدة، ثم ينفجر فجأة صارخًا ويجلس أعلى فراشه وهو يقول: «لا... لا».

يعود ذلك الغريب سريعًا إلى الظلام دون أن يلحظ وجوده

(ناصر) الذي يزيح الغطاء ويمسح عرقه ثم يهبط من فوق فراشه، يمدّ يده ويبحث عن مفتاح الأباجورة ليبدد الظلام، يقف بجسد شبه عارٍ ويبحث عن علبة السجائر ويخرج واحدة، يشعلها ويسندها على المطفأة ويتجه إلى الخزانة يخرج منها ملابس ثقيلة، يبدأ في ارتدائها ثم يعود ليجلس على السرير ويكمل التدخين ويسمع صوتًا حثيثًا قادمًا من اتجاه الشرفة، يعتدل وينظر إليها، يتحرك نحو الستائر السوداء ثقيلة الوزن ببطء، يزيح جزءًا بسيطًا منها ليرى ذلك الشخص ما زال يقف في العقار المقابل له ينظر له في حدة وكأنه يراه.

يغلق الستائر ويعود ليجلس أعلى فراشة يتذكر الكابوس الذي راوده، عن ذلك اليوم الذي غيّر كل حياته، انتهى معه الأمل والرغبة في الحياة، لم يعِ حتى تلك اللحظات التي يسقط فيها رماد السجائر على أصابعه من دون أن يشعر ما الذي اقترفه كي يحدث له كل ما حدث، لقد رحلوا وتركوه من دون سبب أو جرم اقترفه، تساءل لسنوات طوال كيف وصلت الأمور إلى ذلك المنعطف الحزين، لم يطلب شيئًا، فقط همسوا في أذنه وصدقهم، أملوا عليه ما يفعله ولم يعارضهم سوى في مرة وحيدة، مرة وحيدة فقط كانت كفيلة بأن يحيلوا حياته إلى جحيم مستعر، جحيم لا باب له ولا قاع، سلبوه كل شيء من خطأ وحيد، لم يبرم عهدًا

أو ميثاقًا، لم يطلب قدومهم ولم يرحب بهم، لم يطرقوا له بابًا بل اقتحموا حياته عنوة، ظل أعوامًا يقاوم وجودهم لكنه فشلَ، خارت قواه أمام نفوذهم الواسع، ظهروا له في كل وجهٍ ومكانٍ، أحاطوا به وبمَنْ حوله وفي لحظة سلبوه إياهم، سلبوه أغلى ما يملك؛ زوجته وأطفاله في لمح البصر كانوا أسفل التراب دون حول له ولا قوة، دون أن يقترفوا ذنبًا، ذرف عليهم دموعًا تكفي أن تملأ بحارًا وحزن عليهم حزنًا يكفي لاحتواء الشمس في أوجها ويطفئ ضوءها.

أفاق من شروده فوجد الأرض ابتلت أسفل قدمه من دموعه المنهمرة، نظر إلى السيجارة في يده فوجدها قد لفظت أنفاسها الأخيرة، وقف واتجه إلى دورة المياه بجسد مُرهَق وعقل مستهلَك ونفسًا أوشكت على التلاشي.

(4)

«الكثير من الأسرار تحتاج إلى الكثير من الجهد، باب عملاق بمفتاح صغير الجميع يبحث عنه بينما يمتلكه أحد أكثر الناس زهدًا في الحياة، أمواج تتلاطم وتطيح بقارب فارغ يمينًا ويسارًا، عدة قصاصات من أخبار لجرائم مختلفة غير متناغمة كالجمل السابقة تمامًا، إن أردت الحقيقة عليك المثابرة ورؤية ما لا يستطيع رؤية غيرك».



شتاء عام 1893

إحدى قرى الصعيد النائية

جلس المتولي داخل منزله يفكر في اقتراب موعد تقديم القرابين الخمس إلى الطوارق، هو يريد الترقي والوصول إلى مكانة لم يصل إليها ساحر من قبل، بداخله لا يثق حقًّا أن هؤلاء الثلاثة الذين كلفهم بخطف الأطفال سينجحون في ذلك، هو لا يأبه لهم عجلًا أم آجلًا سيتخلص منهم واحدًا تلو الآخر ويسترد سبائك الذهب التي أعطاهم إياها لكن ما يقلقه حقًّا أن يكتشف أحدهم أنه وراء خطف الأطفال وبالأخص ذلك الشيخ الذي أبى أن يحضر في مجالسه أو يأخذ من هداياه، الشيخ رضوان لديه شيء لا يفهمه المتولي ولا حتى الطوارق.

عدد كبير من الخيول يهبطون من فوق الجبل في اتجاه البلدة الفقيرة ليبثوا الرعب والفزع في قلوب الجميع، ينهبون البيوت ويقتلون الرجال، حالة من الهرج والمرج ومحاولات بائسة للتصدي لهم لكن دون فائدة، اختبأ الأكابر خلف جدران بيوتهم المحصنة ومعهم من يحميهم من الغفر وتركوا الرعية من دون مأوى في وجه المطاريد.

هبط (همَّام) من فوق حصانه متوسطًا ميدان الأكابر وقال بصوت مرتفع:

- سمعت أنكم وجدتم مقبرة بها الكثير من الذهب والمساخيط، فتحتم قبرًا ينتمي إلى أرضي، أرض المطاريد من دون إذن، أمهلكم حتى الليل وبعدها سأحرق منازلكم وأنهب أموالكم وأسبي نساءكم كما فعلت مع الرعية.

أنهى كلماته وركب فوق حصانه وأراد المغادرة هو ومَن معه من أعوانه ليجد (المتولي) وقفًا أمامهم وحيدًا أعزلَ، ينظر لهم في تحدٍّ هو وعصاه، ابتسم (همام) قائلًا:

- هل تعتقد أنك موسى بتلك العصا، رجل مخبول.

ثم أصدر ضحكة مرتفعة ليقطعها صوت (المتولي):

- أما رب موسى فكان رحيمًا، لكنكم لن تجدوا هنا سوى العذاب.

تغيرت ملامح (همام) وشعر بالإهانة. ترجل عن حصانه متحركًا بخطوات واسعة حتى وصل أمام (المتولي)، نظر داخل عينه فلم يرَ فيهما ضعفًا أو خوفًا، نظر إلى رجاله فوجدهم متأهبين لردة فعله فمنذ ظهور ذلك الرجل تجمع أهل القرية في الساحة وأحاطوا بهم من كل جانب، أخرج (همام) سكينًا كبير الحجم ورفعه إلى أعلى فلمع مع ضوء الشمس وأخذ انتباه الجميع ثم هبطَ به مسرعًا في اتجاه (المتولي) الذي اختفى وظهر فجأة خلف همام وسط فزع

من الموجودين، وقع همام أرضًا من هول الصدمة وفجأة هجم أهل القرية على المطاريد وقتلوا منهم عددًا واستردوا ما سُلبَ منهم، ووسط كل تلك الجلبة هربَ همام تاركًا أتباعه يلقون أسوأ مصير.

ومع قدوم الليل تم شنق كل المطاريد الذين نجوا من بين براثن أهل القرية، قدمت الهدايا إلى (المتولي) الذي نظر إلى رجاله الثلاثة وأشار لهم أن يقتربوا منه ثم همس بصوت منخفض قائلًا:

- همام سيعود وهو أقوى، وأنا أريد القرابين كما اتفقت معكم من قبل 5 أطفال كل عام، أريدهم مع اكتمال القمر وستكون هناك ثلاث سبائك للذهب في انتظاركم مثل الثلاث السابقين.

أنهى كلماته ثم نظر إلى أعلى ليرى هلال يطل وحيدًا وسط سماء بلا نجوم.

***

شتاء عام 2010

مكتب اللواء (عاطف يونس)

وسط التحيات العسكرية تحرك اللواء (عاطف) عبر رواق طويل يقود إلى مكتبه في نهايته، دخل المكتب وأغلق خلفه بابه، خلع غطاء الرأس ووضعه أعلى المكتب الذي يحتل مساحة كبيرة مقارنة بباقي الأثاث الموجود داخل المكتب، ضغط على زر قريب منه فطرق الباب ودخل عسكري.

- تعليمات سيادتك.

نظر له اللواء (عاطف).

- أريد فنجان قهوة سريعًا.

أدى العسكري التحية العسكرية ثم غادر المكتب، أخذ (عاطف) بعض اللحظات يرتب أفكاره، أمسك بهاتفه وبحث عن رقم الرائد (مراد)، اتصل به وانتظر الإجابة ثم قال:

- صباح الخير، أخبرني كيف تسير القضية؟

استمع إلى ما يقال ثم سأله:

- أين التقارير الخاصة بالمعمل الجنائي والطب الشرعي وتقاريرك المبنية على التحقيقات؟ لمَ كل ذلك التأخير؟

صمت لحظات وتغيرت ملامح وجهه.

- جثتان أخريَيْن في نفس البيت؟ شيء غريب حقًا، حسنًا أنا في انتظار التقارير في أسرع وقت، لا نريد أن نستغرق وقتًا طويلًا في تلك القضية فنحن لا نملك رفاهية الوقت في عملنا، أريدك أن تنتهي من تلك القضية خلال أسبوعين على الأكثر.

أنهى اللواء (عاطف) المكالمة ثم وضع الهاتف أعلى المكتب، طرق أحدهم الباب، دخل العسكري يحمل صينية موضوع عليها فنجان قهوة وكوب ماء بارد وضعهم بحرص أعلى المكتب واتجه إلى باب الخروج، ثم التفت عندما قال له اللواء:

- أخبر العقيد شاكر أنني أريده في الحال.

خرج العسكري مسرعًا بينما بدأ اللواء (عاطف) في تناوُل قهوته وهو يفكر فيما قاله الرائد (مراد) عن الجثتين الأخريين، تذكر أمرًا ما آخر وأمسك بهاتفه ثم بحث عن رقم واتصل به وانتظر الإجابة...

***

داخل مكتب التحقيقات جلس الرائد (مراد) والملازم (شريف) يتحدثان في حيثيات القضية والتحقيقات وهما

يشربان القهوة، ويبدو عليهما التحسن بعد قضاء ثلاث ليالٍ قضوها في التحقيقات والتحريات وسماع أقوال الشهود وقراءة التقارير من دون راحة أو نوم.

طرق الباب ودخل الطبيب الشرعي (عمر) الذي بدا عليه الإرهاق الشديد وقلة النوم، سلَّم على الضابطين ثم جلس ووضع التقارير الخاصة بالتشريح وفحص العينات أعلى المكتب في صمت.

أمسك (مراد) التقارير وأخذ يقرأها وهو يراقب تصرفات (عمر)، يبدو أنه لم يحظَ بساعة نوم واحدة، أنهى التقرير قائلًا:

- هل تقصد أننا أمام ثلاث جرائم قتل من دون أداة للقتل؟

نظر له (عمر):

- لا، بل أقصد أنني ورغم كل تلك السنوات التي قضيتها في عملي كطبيب شرعي لم أرَ أي أداة قتل يمكنها أن تحدث تلك الأضرار التي وجدتها على الجثث الثلاث، رشاد ذُبِح وقطع عضوه الذكري بها، وسعيد أيضًا قُطعت رأسه بها، أما سيد فقد بترت قدمه بنفس الأداة التي لا أعلم حتى ماهيتها، وأقرب وصف لها أنها مخلب حيوان ضخم يتراوح حجمه ما بين الدب والذئب. تعجب (مراد) من ذلك قائلًا:

- تلك العلامات لمخلب حيوان إثبات جيد، لكن لا يعد دليلًا قاطعًا لماذًا لا توجد شعيرات متساقطة أو آثار لأقدام ذلك الحيوان في مسرح الجريمة؟

باغته (عمر) معقبًا:

- أنا أعتقد أن تلك العلامات على جسد الضحايا دليل قاطع على وجود الحيوان، وأعتقد أن عدم وجود لبصمات إنسان داخل مسرح الجريمة سوى بصمات المجني عليهم الثلاثة يؤيد نظريتي، ليس هذا من فعل البشر إن كان ذلك غير واضحٍ؛ فالصور المرفقة بالتقرير تؤيد كلامي.

نظر (شريف) إلى (مراد) فوجده غاضبًا وعلى وشك الانفعال فسأل الطبيب:

- ماذا عن عينات الدم؟

أمسك (عمر) التقارير وأخذ يبحث بداخلها عن ورقة، أخرجها ووضعها أعلى المكتب وهو يقول:

- جميعهم كانوا تحت تأثير الخمور.

تحدَّث (مراد) هو يشعل سيجارًا:

- التحريات أثبتت أنهم كانوا يتعاطون المخدرات ويشربون الخمور دائمًا.

نظر (عمر) إلى (مراد) قائلًا:

- ليست بتلك الكمية، العينات أثبتت أنهم كانوا في حالة سُكْر كبيرة، بمعنى أدق كانوا وكأنهم في سهرة حمراء ومن غير المنطقي أن يشرب أحدهم ذلك القدر من الخمر وهو ذاهبٌ لسرقة شيء ما من داخل منزل مهجور سيئ السمعة.. هل أنا على حقٍّ فيما أقوله؟

أومأ الرائد (مراد) بالموافقة.

- بعيدًا عن التقارير وعملك كطبيب، أريد أن أسألك عن شيء ما؟

هدأ (عمر) ونظر إلى (مراد):

- تفضل.

- أشعر أنك لست بخير، لقد عملنا معًا على قضايا كثيرة لا تُعد ولا تحصى ولم أرَك في تلك الحالة من العصبية من قبل، ما الذي حدث لك؟

أمسك (عمر) بكوب ماء كان موجود أعلى المكتب وشربه. أنا أرى أشياء، أشياء مفزعة منذ بدأت في تشريح تلك الجثث.

تنبَّه (مراد) ونظر له في خوف متسائلًا:

- أشياء مثل ماذا؟

- أعلم أنكم ستطلقون عليَّ لقب المجنون بعد أن تستمعوا إلى ما سأقول، لكن أنا أريد التحدُّث على كل حالٍ، عقلي على وشْكِ أن ينفجر من كثرة التفكير.

***

داخل منزل (مراد) جلست أمه أمام صوره تجمعها هي وزوجها الراحل اللواء (غفران) وابنهما عندما كان صغيرًا حديث التخرج، قرأت له الفاتحة ثم وقفت وتحركت إلى غرفة مكتبه، فتحت الغرفة التي تركتها على شاكلتها منذ أن توفى زوجها، فقط هي تدخل كي تنظفها وتخرج بعد ذلك، وللمرة الأولى التي تدخلها وتغلق خلفها ثم تفتح درج مكتبه المقدس والذي لم يكن لأحد أن يقربه قَط، بحثت داخل ملفاته عن ملف يحمل اسم قضية بيت المتولي فلم تجده، بحثت لقرابة الساعة لكنها لم تجد ذلك الملف، لكنها تتذكر تلك القضية جيدًا، تتذكر ذلك الوقت العصيب الذي مرّا به سويًا، عندما عاد من عمله متأخرًا مهمومًا خائفًا يرتجف على غير عادته، رفض إخبارها في بادئ الأمر لكنها ألحت بشدة فأخبرها أنه تعرض لشيء غريب داخل ذلك المنزل، شيء جعله يفيق مفزوعًا في منتصف الليل حتى بعد مضي أعوام كثيرة على غلق تلك القضية.

بحثت حتى وجدت خزينة صغيرة داخل درج سرى بمكتبه، أدخلت الأكواد عدة مرات لكنها لم تنجح حتى وضعت تاريخ ميلادها ففتحت الخزينة، دمعت عيناها ودب الحنين داخل قلبها من جديد، تذكرت أيامهم سويًّا وتذكرت كل ما مرَّا به سويًا.

فتحت الخزينة فوجدت عددًا من الملفات، بحثت عن واحد يحمل اسم بيت المتولي، اللعنة على ذلك البيت حتى وجدته، سحبته بيد مرتعشة من بين الملفات ثم جلست على كرسي زوجها، وفتحت الملف وبدأت في قراءته.

***

تسلل (صلاح) إلى الجهة الخلفية من البيت وهو ينظر بخوف إلى رجال الشرطة الذين يقفون بالقرب من باب البيت الأمامي، اطمأن أنهم منشغلون ولم يدركوا وجوده فأشار إلى (منال) و(ماجد) أن يقتربا بهدوء، أمسك بسلم خشبي ووضعه أعلى السور الخلفي ثم أشار لهم أن يصعدوا ووقف هو يراقب الطريق.

صعد (ماجد) وتبعته (منال)، قفز الاثنان من أعلى السور إلى داخل الحديقة الخلفية المهجورة، صعد (صلاح) ونظر لهم من أعلى السور قائلًا:

- هناك باب خلفي، أنا سأكون هنا بانتظاركم وسأحذركم إذا اقترب أحدٌ من المنزل، أسْرِعوا رجاء.

تحرك (ماجد) وتبعته (منال) بحثًا عن الباب الخلفي، أخرج (ماجد) كشافًا وتحرك ببطء حتى وجد بابًا خشبيًا شبه مغلق لكن طريقه مسدود بعدة أسياخ من الحديد والخشب وقطع من الطوب، أخذ يزيح واحدًا تلو الآخر بمساعدة (منال) حتى أصبح الطريق ممهدًا للدخول.

فور دخولهم إلى البيت شعروا أنهم ليس بمفردهم سمعوا خطوات بدت قريبة منهم، أكملوا السير إلى الداخل، أخرجت (منال) «الكاميرا» وأعدَّتها من أجل التصوير، بحثًا عن أثرٍ للدماء في الصالة فوجدوا بعضًا منهم، اتسعت بسمة (منال) وبدأت في تصوير بقع الدماء وجدران المنزل وأرضيته والصور القديمة المعلَّقة.

سمع (ماجد) صوتًا قادمًا من الدور السفلي فأشار إلى (منال) وهو يقول بصوت هادئ:

- هل سمعتِ ذلك الصوت؟

أومأت بالإيجاب قائلة:

- قادم من أسفل، الصوت قريب للغاية.

أنهت كلماتها ثم توجهت إلى السلالم، اقترب منها (ماجد) وهو يقول:

- فكرة ليست جيدة، أنا أرجّح أن نرحل ويكفي ما أخذناه من صور.

كادت أن تضحك (منال) بصوت لكنها وضعت يدها أمام فمها.

- لم أكن أعلم أنك جبان.

تظاهر (ماجد) بالغضب ثم فجأة فصل هاتفه وانقطعت الإضاءة الوحيدة التي يمتلكونها، سألها:

- أين هاتفك؟

نظرت له قائلة:

- تركته في السيارة، انتظر لدي فكرة، سنسير على فلاش الكاميرا.

أمسكت بيده واخذت تضرب فلاش «الكاميرا» في الظلام وهما يهبطان سويًا وفجأة أظهر فلاش «الكاميرا» عددًا من المسوخ يقفون بالأسفل في انتظارهم، صرخت (منال) وهرولت وتبعها (ماجد) الذي حاول أن يغلق الباب لكن أحدهم أمسك بالباب هو يعدو خلفه، خرجت (منال) وهي

تصرخ وتبعها (ماجد) لكنه تعثر فور خروجه ووقع أعلى أحد الأسياخ الذي اخترق كتفه مباشرة، أخذ ينزف دماء أمام (منال) التي أخذت في الصراخ فتنبه الجيران ورجال الشرطة في الخارج وأتوا مسرعين.

بعد ساعة حضرت سيارة إسعاف وتمكنوا من إخراج (ماجد) على قيد الحياة لكنه أصيب إصابة خطيرة. أحاط الأهالي بالبيت وبدأت الشرطة في تقصي الحقائق وعلموا أنهما صحفيان متطفلان أرادا أن يحصلا على سبق صحفي وكاد أحدهما أن يُقتَل، رغم كل ما تعرضت له (منال) من ضغط إلا أنها لم تذكر اسم (صلاح).

***

أمسك بألبوم الصور الذي يحمل كل ذكرياته، بعين دامعة فتحه ونظر إلى أول صورة، كان شابًا وسيمًا ولم تكن تلك الشعيرات البيضاء نمت داخل لحيته بعد، يقف مبتسمًا وبجانبه زوجته وحبيبة عمره (هند)، مرر أصابعه على وجهها وكأنه يتمنى أن يلامس وجهها مرة أخرى، سقطت دمعة سهوًا فمسحها خوفًا من أن يتضرر الألبوم، نظر إلى الصورة التالية، إنها يوم مولد ابنته الأولى (مي)، بهجته وفرحته الأولى، مَن جعلت للحياة هدفًا، الشمس وسط الضباب، انهمرت دموعه أنهارًا عندما تذكر وجهها الدامي يوم الحادثة،

ارتفع صوت أنينه ندمًا وحسرة على فقدانها، قلب الصفحة وكأنه لم يكتفِ من الجلدات التي تهطل أمطارًا على سطح قلبه الدامي، الصورة التالية ابنته (هالة)، الأقرب إلى قلب أبيها الذي أظلم من يوم فراقها، شعر بوخزة اعتاد عليها في صدره، شعر بها أول مرة عندما أغلق القبر عليهم ووقف وحيدًا، الصورة التالية (يامن)، ارتفع صوته وهو يقول باكيًا:

- افتقدكم، افتقدكم للغاية، أنا آسف، آسف بشدة لم يكن بيدى شيء لأفعله.

أنهى كلماته وأغلق الألبوم وظلَّ يبكي حتى فقد وعيه ووقع أرضًا بجانب الألبوم الذي سقط متزامنًا مع سقوطه، سقوط لم يشعر به أحد إلا من واراهم الثرى.

(5)

«ما يحاك في الظلام يظل في الظلام، وما يُصنع على يد الشيطان يصبح أكثر الأشياء فتكًا وشرًا، ما يحاك وما يصنع أصبح أمام ناظريك لكنك لا ترى، همساتهم في أذنك وتلاعبهم بعقلك يتزايد كلما اقتربت من الحقيقة».

شتاء عام 1895

الجبل الأسود بالقرب من إحدى قرى الصعيد النائية

مع بزوخ الفجر ظهر (همام) فوق ظهر جمل ومن خلفه ظهر رجل أسمر البشرة أتى به من السودان يدعى (عذرا الأسود) ساحر شهير تعاهد مع أقوى وأعتى الشياطين وملوكهم وقد أتى بعدما أقنعه همام أنه سيحصل على كنز كبير مدفون أسفل منزل المتولي، رجل يبدو عليه الجشع والطمع، رغم كل ما وعده به همام ظلَّ يسأله طوال الطريق عن المزيد.

هبط (همام) من فوق الجمل وأمر رجالة أن ينصبوا خيمة ويلبوا كل طلبات (عذرا)، هبط (عذرا) من فوق الجمل واقترب من همام:

- فكرت بعرضك طوال الطريق، نصف كنز المتولي لا يكفي بالنسبة لي، لقد قطعت مسافة كبيرة من السودان والحبشة إلى هنا معك كي أخلصكم منه ونبدأ في عملنا المربح، أنا من سيفعل كل شيء وأنتم تقتسمون معي الكنز مناصفة؟ أنا أريد الثلثين، وأريد كل أدوات المتولي، وبالأخص العصا التي سمعت عنها الكثير، وكتبه، أريدها جميعًا، إن لم توافق على شروطي، الجمل في الانتظار والحبشة على بُعد شهرين من المسير.

ظهرت معالم الغضب على وجه همام لكنه تمالك نفسه:

- لك ما تريد لكن يجب أن تقتل المتولي أمام الجميع، إن فعلت تصبح كل شروطك مجابة، الجبل هنا مليء بالمساخيط والكنوز سنصبح أغنياء إذا تخلصنا من المتولي.

أنهى كلماته ثم ابتعد وأخذ معه اثنين إلى القرية، قصد منزل (المتولي) وأخذ ينادي عليه وهو يقف أمام بيته، فتح الباب وخرج (المتولي) الذي ما إن رآه ابتسم وقال:

- ألم تجد سوى عذرا الأسود؟ السودان والحبشة يمتلكون سحرة أمهر وأقوى من ذلك الهاوي الذي جلبته معك.

ارتفع صوت (همام):

- عذرا يريد أن يجتمع الناس هنا ويواجهك، وسنرى مَن منكم يمتلك القوة ومن منكم دجال يمتلك بعض الحيل الطفولية.

ضرب المتولي الأرض بعصاه فارتعد (همام) وتراجع إلى الخلف، وقبل أن يهرول ظهر (عذرا) يرتدي ملابس سوداء فبدا كشيطان يسير بين الناس قائلًا:

- وفّر طاقتك للقاء، سأكون هنا فجر الخميس وأسفل الشمس وأمام بيتك في انتظارك وسنرى.

أنهى كلماته وتحرك بين الناس فأخذوا يتفادونه ويفسحون له الطريق وهو يسير مفتخرًا بما قاله وتبعه (همام) ورجاله، نظر (المتولي) إليه بعين كارهة ثم دخل إلى منزله وهو غاضب كذئب هربت منه فريسته.

***

شتاء عام 2010

شارع المتولي بالقرب من بيت المتولي

جلس الشيخ (بدر) داخل محل العطارة يتذكر أشياء تؤلمه، لم يستطع يومًا أن ينزع صورة ابنه وهو يسقط أرضًا مفارقًا للحياة، كاد وقتها أن يفقد إيمانه ويتسلل إلى قلبه الشك في أن الله رحيم بالعباد، تساقطت الدموع من عينيه ورفع نظره إلى صورة ابنه (خالد) المعلقة على أحد جدران المحل وبجانبها شاهدته الجامعية، تجمدت الدموع داخل عينيه عندما رأى طفلًا صغيرًا يقترب من المحل وهو يحمل بعض النقود ومعها ورقة، أمسك بالورقة وقرأ ما بداخلها ثم أخذ النقود من الطفل وأعطى له طلبه، أمسك الطفل بالشنطة السوداء واتجه إلى العقار المقابل للمحل حيث يسكن وظل ينظر إليه بترقب فهو يذكره بخالد عندما كان في مثل سنه، ظلَّ يراقبه حتى دخل إلى منزله.

عاد الشيخ (بدر) إلى محله ثم أغلقه عليه من الداخل بعد أن نظر يمينًا ويسارًا وكأنه يخشى شيئًا ما، أغلق الإضاءة وأمسك بكشاف واتجه إلى المخزن المرفق بالمحل والذي كان مغطى بعدة أشولة مليئة بالبضائع، فتح باب المخزن ودخل ثم أغلق الباب خلفه.

فور إغلاق الباب أتى صوت الشيخ (بدر) وهو يبكي بكاء

الأطفال على فقدان ابنه العزيز ثم أخذ يصدر سعالًا مرتفعًا وصمت فجأة، تسرب من أسفل الباب دخان أحمر غريب وظل هكذا لدقائق حتى فتح الباب وخرج من خلفه الشيخ (بدر) يضع كمامة على وجهه، انتظر لحظات حتى اختفى الدخان وفتح باب المحل وخرج كي يؤذّن لصلاة العصر وهو يترنح ويحاول التماسك ويسعل بشدة.

***

أمام إحدى المستشفيات الخاصة توقفت سيارة حديثة الطراز وهبطت منها (منال) وهي تحمل بيدها بعضًا من الورود. اتجهت إلى المصعد وضغطت على الرقم ثلاثة وانتظرت أن يصل بها المصعد إلى الدور المنشود، توقف المصعد وفتح بابه، اتجهت (منال) مسرعة إلى غرفة تحمل رقم 103 ونظرت من خلال الزجاج لترى (ماجد) نائمًا فوق فراش وهناك ضمادة كبيرة الحجم تغطي كتفه بالكامل، يبدو عليه الوهن والألم، هناك أنبوب ممتد من شرايينه ومتصل بمحلول ما، دمعت عيناها وشعرت أنها السبب فيما حدث له وما يشعر به الآن، طرقت الباب ودخلت إلى الحجرة، وضعت الورود بجانبه على كومود ونظرت له بعين دامعة، لاحظ (ماجد) وجودها وابتسم لها فانهمرت دموعها وأمسكت بيده، قال (ماجد) بصعوبة:

- أهلًا بسيدة المغامرات الأولى.

حاولت الابتسام لكنها فشلت وازادت بكاء فقال:

- لا تحمّلي نفسك فوق طاقتها، لم تكوني السبب فيما حدث نحن رأينا معًا تلك الكيانات وأنا ذهبت معك بمحض إرادتي، ولو تكرر الأمر سأذهب معك، محال أن أدعك في موقف كهذا.

أمسكت بيده كطفلة صغيرة وجدت أباها بعد أن سلبها إياه الزحام، مسحت دموعها وقالت.

- لا أعلم حقًا ماهية ما رأيناه، ولكنني أعتقد أنه لم يكن بشرًا.

حرك (ماجد) رأسه يمينًا ويسارًا فشعر بألم صمت قليلًا ثم قال:

- محال أن يكونوا آدمين، يبدو أن كل الشائعات التي قيلت عن بيت المتولي لم تكن سوى الحقيقة، أرجوكِ يا منال لا تذهبي إلى هناك.. رجاء.

أرادت التحدث لكنها فوجئت بالرائد (مراد) و(شريف) يقفان في الخارج ينظران إليها عبر الزجاج ويشيران لها أن تخرج لهما.

نظر (ماجد) لهم ثم أخبرها أن تذهب وأن تخفي عنهما ما حدث داخل المنزل. جلسوا في «كافيتريا» المستشفى وبدأ (مراد) في استجواب (منال) التي لم تأخذ بنصيحة (ماجد) وقالت كل ما حدث بالتفصيل، مع نهاية التحقيق ظهرت معالم القلق والخوف على وجه (شريف) بينما ظلَّ (مراد) ينظر لها في ترقب وهو صامت.

***

بعد يوم شاق من التحقيقات والتحريات عاد (مراد) إلى منزله فوجد أمه ما زالت في انتظاره على غير العادة، أغلق الباب وألقى بالمفاتيح واتجه إليها مسرعًا في قلق وخوف واضحين على ملامحه.

- هل أنتِ بخير؟ ما الذي حدث؟

لم تجبِه بل مدت يدها وأعطته ملفًا كتب عليه قضية بيت المتولي عام 1960، أمسك به في تعجب ثم عاد بنظره إلى أمه التي قالت:

- ذلك المنزل لم يفارق أحلام والدك حتى يوم مماته، لقد حقق من قبل في قضية تخص ذلك البيت ويبدو أن بيت المتولي يأبى أن يفارقنا.

أنهت كلماتها ثم وقفت واتجهت إلى غرفتها وأغلقت خلفها

الباب، أخذ (مراد) الملف ودخل إلى غرفته، جلس إلى مكتبه وبدأ في قراءة ما جاء في التحقيقات ومشاهدة الصور حتى انتهى، وجد عدة أوراق من مذكرات بخط يد والده فبدأ في قراءتها بعينيه:

«اليوم هو الثلاثاء الموافق الخامس من يناير لعام 1960، منذ شهر مضى بدأت التحقيقات في احتراق منزل المتولي واختفاء جميع أفراده رغم أن الشهود أقروا وأكدوا أنهم كانوا يصرخون ويحترقون داخل المنزل، لقد تغيَّر شيء ما بداخلي فور دخولي ذلك البيت، أشعر أن هناك من يراقبني منذ أن وضعت قدمي بالداخل، حتى في طريق عودتي إلى قسم الشرطة وداخل مكتبي هنا وأنا أكتب تلك الكلمات الآن، رأيت في اليوم التالي لدخولي ذلك المنزل رجلًا غريب الشكل أسمر البشرة تسبب في أكثر الكوابيس فزعًا وأشدها وطأة على قلبي، رأيت أهوالًا، أطفالًا تُذبح، شياطين تُعبَد، سحرًا يغوي العقول، ماردًا يأكل لحمًا نيئًا، بيتًا يبتلع سكانه، عالمًا سفليًا يقود إلى الجحيم، كهفًا بفوهة يمثل بابًا لذلك العالم، كوابيس لا نهاية لها لازمتني، أعتقد أن ذلك البيت يحوي سرًا لا أريد أن أعلمه ما حييت، أريد فقط أن ينتهي ذلك الكابوس ويخرج ذلك الوسواس من رأسي، أريد أن أحيا حياة طبيعية كما كنت في السابق، علمت منذ أيام أن من يسكن ذلك البيت قبيلة تدعى الطوارق، وأن المتولي

هو من سعى في إحضارهم إلى عالمنا وترك بابًا مفتوحًا بين العالمين على مصراعيه، أعتقد أن ذلك البيت هو البوابة لعبورهم، بوابة للجحيم، أريد أن أكون آمنًا، أريد أن تكون زوجتي وابني مراد في أمان، هذا كل ما أتمناه وسأعمل على ذلك وإن كلفني حياتي».

أنهى مراد قراءة ما كتبه والده، لم يكن يتوقع أن يحقق في واقعة تتعلق بمكان كان السبب في مرض أبيه النفسي لبقية حياته، ويبدو أنه يخطو على خطاه في كل شيء؛ نفس الوظيفة، نفس المكان، نفس الكوابيس، لكنه يأبى أن تكون نفس النهاية فهو عازم على حل تلك القضية وإن كلفه ذلك الأمر عقله، وظيفته، حياته إن تطلب الأمر، عزم على أن يفك رموز ذلك البيت وإن كان يمثل بابًا للجحيم كما كتب والده في مذكراته فسيكون هو من سيغلقه في وجه الشيطان.

أغلق الملف فسقطت ورقة غريبة الشكل من بين أوراق الملف، انحنى وأمسك بها ثم نظر إليها ليجد خمسة أسماء مكتوبة (عزيميل، دفرائيل، منذرئيل، خشمنئيل، عزفئيل)، شعر بنار تجتاح رأسه وصدره معًا، وتذكَّر ما حدث من قبل في سن مبكرة أثناء الطفولة عندما دخل إلى مكتب أبيه يبحث عنه ولم يجده لكنه وجد تلك الورقة وقراها بصوت مسموع فتفاجأ بأبيه خلفه وحذَّره من الدخول إلى مكتبه

من جديد أثناء غيابه، بدا عصبيًا وعلى غير طبيعته التي عهدها عليه، أخرجه وأغلق الباب وظل بالداخل لساعات وعندما خرج كان أكثر عصبية من ذي قبل.

وضع الورقة داخل الملف وشعر أن هناك أحدًا ما برفقته داخل المكتب لكنه لا يراه، خيِّلَ له أن هناك أصواتًا تتحدث إليه، أغلق الإضاءة وخرج من المكتب مسرعًا.

***

وضع ورقة حمراء كعلامة للتوقف داخل إحدى صفحات الكتاب الذي يقرأه قبل أن يغلقه ويضعه أعلى المكتب، وقف وارتدى الروب الثقيل وأخذ يتتبع مصدر الهواء، خرج من مكتبه إلى الصالة فوجد بها شباكًا قد فُتحَ من فعل الرياح، أحكم إغلاقه واتجه إلى المطبخ كي يُعِد فنجان من القهوة ثم يعود ليكمل القراءة من جديد، لم يعد له في تلك الدنيا سوى القراءة والكتابة وزيارة الموتى في قبورهم وبعض من السجائر والكثير من فناجين القهوة، يقضي نصف يومه نائمًا والنصف الآخر إما يقرأ أو يكتب أو يبكي على ما حدث في الماضي.

كادت القهوة أن تفور وتُغرِق سطح البوتجاز لكنه فطنَ إليها باكرًا لحظات، صب القهوة واتجه إلى مكتبه من جديد، وضع الفنجان بجانب الكتاب الذي كان يحمل اسم «جيش قمبيز

المفقود للكاتب بول سوسمان»، اتجه (ناصر) إلى إحدى اللوحات المعلَّقة ونظر إلى تاريخ اليوم فوجده الثلاثاء 5 يناير، دمعت عينه وهو يتمتم ببعض الكلمات:

- اقتربَتْ الذكرى الثالثة لرحيلهم، اقتربت عودة فتح الجراح.

مسح دموعه واتجه إلى مكتبه وجلس، أمسك بفنجان القهوة وشربَ منه، أمسك الكتاب وأكمل قراءة، سمع صوت اصطدام قوي بالخارج فترك الكتاب وأسرع إلى الصالة فوجد الشباك مفتوحًا من جديد، اتجه إليه مسرعًا فالطقس يزداد بردًا وقبل أن يغلقه وجد ذلك الرجل ينظر له من أسفل العقار، أغلق الشباك بإحكام تلك المرة وعاد إلى مكتبه من جديد.

(6)

«جلسنا إلى مائدة الشيطان وجلس هو على رأسها، روى لنا ما يحمله من أسرار، وتناسى أحدهم عن عمد، وقف أحدنا وسأله عن قصة الضياء فبدا أكثر غرورًا وقال لم يستطع أن يحملها سواي، الحقيقة التي أخفاها أنه لم يكن يحمل سوى الظلام وما أحلكه إذا سكنه نسل إبليس».

شتاء عام 1895

إحدى قرى الصعيد النائية

وقف (عذرا الأسود) أمام منزل المتولي ومن حوله أهل القرية يشكلون حلقة كبيرة ومن بعيد يراقب (همام) ورجاله ما يحدث في ترقب وحذر، أخبره أن من يقومون بحماية المتولي يمكثون داخل الجبل الأسود، وأنه لا يخشاهم وقد فعل اللازم من أجل تحجيم قواهم، فتح باب منزل (المتولي) وخرج منه وهو ممسك بتلك العصا السوداء المميزة برأس الثعبان، بدت عليه الثقة والهدوء، بينما بدا على (عذرا) الغضب والتوتر فور رؤيته وبدأ يتمتم ببعض الكلمات ويحرك يده يمينًا ويسارًا محاوِلًا إحداث رهبة في نفس خصمه لكن كل محاولاته باءت بالفشل.

وقف (المتولي) في منتصف الدائرة وأشار إلى (عذرا) أن يقترب فتحرك نحوه بخوف وقلق واضحين، وقف أمامه ونظر داخل عينه وكأنه يحاول قراءة ما بها من غضب وأسرار.

ساحران يقفان بوجه بعضهما البعض وكل منهما يحاول إظهار قوته وقوة مَن معه من بني الجان، نطق (عذرا) ببعض العبارات للكشف عن قدرات (المتولي) فصعق عندما رأى خلفه الطوارق رغم نطقه ببعض التعاويذ لكنها لم تؤثر بهم،

خمسة من أعتى الشياطين يقفون خلفه رهن إشارته، هو يعلم أن واحدًا منهم كفيلٌ أن يقضي على جيش من الجان، ارتعد وخارت قواه، جثا أرضًا متوسلًا (للمتولي) أن يتركه يغادر مصر بل سيغادر السودان والحبشة، ابتسم (المتولي) وأشار بعصاه لأعلى ثم جذبها بقوة فارتفع جسد (همام) في الهواء ووقع أمامه بجانب (عذرا الأسود) على الأرض وهو يتألم.

- رجل من المطاريد، لص خسيس استعان بدجال دخيل من الحبشة في مواجهة من يحميكم ويساعدكم فما ردكم عليهم؟

صمت الجميع ثم نطق هو:

- الموت بأشد أنواع العذاب، عذرا الأسود سيكون عبرة.

اقترب من (عذرا الأسود) ونطق باسم أحد أفراد الطوارق، فظهر بين الناس ثور واقف على قدمين أمسك به من رأسه ثم حمله إلى أعلى وصرخ صرخة مدوية فجعل الناس يهرولون في كل مكان على غير هداية، أشار له (المتولي) فأحكم قبضته على (عذرا) وهرول في اتجاه الجبل الأسود، بينما (عذرا) ينادي على (المتولي) ويتوسل له وهو يبكي.

انحنى (المتولي) ونظر إلى (همام) الذي كان يتلفت حول

نفسه في خوف وكأن ألف ثعبان يتحركون على جسده، وقف وقَبَّل يد (المتولي) فدفعه بقدمه:

- شريد هائم فقدَ عقله.

صرخ (همام) وأخذ يمزق في ملابسه وهو ينطق بنفس الكلمات «شريد هائم فقد عقله»، ثم أخذ يعدو في اتجاه الصحراء وهو يكمل صارخًا نفس الكلمات، نظر (المتولي) إلى البقية من رجال القرية وابتسم ثم رفع عصاه لأعلى ودخل إلى بيته وأغلق الباب.

***

شتاء عام 2010

مكتب التحقيقات

جلس الرائد (مراد) خلف مكتبه يقرأ التقارير الخاصة بالمعمل الجنائي بتمعن وتركيز كبيرين، وعلى الجانب الآخر جلس الملازم (شريف) يراجع التحقيقات الخاصة بالمباحث والتحريات التي أجريت عن الشهود والمجني عليهم، أخذ (شريف) يرسم دوائر حمراء حول كلمة الطوارق وهو يعدهم بصوت مسموع:

- ذكرت مرة، مرتين، ثلاث، أربع... عشر مرات.

انتبه أخيرًا (مراد) إلى ما ينطق به (شريف) فسأله:

- ما الذي ذكر عشر مرات؟

- كلمة الطوارق.

فتح الباب ودخلت من خلفه (رشا) متزامنًا مع نطق (شريف) بتلك الكلمة، اتجهت إلى المكتب بوجه متعجب ثم جلست وقالت:

- أنا سمعت كلمة الطوارق، هل ما سمعته كان صحيحًا؟

اعتدل (مراد) في جلسته وأشعل سيجارة:

- صحيح، ما الذي تعلمينه عن تلك الكلمة؟

ابتسمت (رشا) ووضعت حقيبتها أمامها قائلة:

- بعد أن تطلب لي عصير ليمون سأخبرك.

ظهرت معالم الغضب على وجه (مراد) فأردفت (رشا) سريعًا:

- حسنًا، قبل أن تغضب، هي كلمة تنتمي إلى قبيلة من الجان، قبيلة من نسل إبليس.

- كيف عرفتِ تلك المعلومات؟ هل ذكرت الصحافة شيئًا؟

ابتسمت (رشا) ووضعت قدمًا على أخرى.

- قرأت عنهم في رواية لكاتب شهير يدعى ناصر المهدي، وهو بالمناسبة ينشر مع نفس دار النشر التي أعمل معها.

أطفأ (مراد) السيجارة بعد أن أخذ نفسًا وأخرج دخانًا كثيفًا وقال:

- وما الذي ذكره ذلك الكاتب في روايته بخلاف الطوارق؟

نظرت (رشا) إلى الدخان المتصاعد إلى السقف تحاول أن تتذكر.

- تحدّث عن صفاتهم وعن قدراتهم وذكرَ شيئًا عن بيت

يُدعى بيت المتولي.

ظهرت معالم الريبة والخوف على وجه الضابطين، وقف (مراد) وتحرك من خلف مكتبه واتجه إلى (رشا) قائلًا:

- أريد أن أقابل ذلك الكاتب في أسرع وقت.

تعجبت (رشا) من ردة فعله قائلة:

- حسنًا، سأتصل بأستاذ فريد كارم مدير دار النشر، هو وحده من يمكنه تدبير ميعاد لنا.

جلس (مراد) بالقرب منها متسائلًا:

- ولمَ لا يمكننا زيارته في منزله الآن؟

أخرجت (رشا) هاتفها مجيبة:

- ناصر المهدي لا يقابل الغرباء أبدًا، هو منطوٍ للغاية، لا يتحدث إلا إلى فريد ولا يخرج من منزله كثيرًا كما أنه لا يستعمل وسائل التواصل الاجتماعي، إن ذهبنا إليه سيرفض مقابلتنا، اترك لي الأمر وسوف أنجح في تحديد ميعاد معه.

أومأ (مراد) برأسه دليلًا على الموافقة وهو ينظر إليها مردفة:

- هل ستفي بوعدك ونذهب إلى السينما اليوم، أم ستظل

هنا بين ملفاتك وقضاياك طوال الليل.

نظر (مراد) إلى (شريف) الذي كتم ضحكة وأخفى ملامح وجهه، وقف (مراد) وأمسك بيدها.

- لا، سأفي بوعدي، ثم سأعود كي أكمل عملي بعد السينما.

خرج (مراد) ومن خلفه (رشا) بينما ظلَّ (شريف) جالسًا يكمل قراءة الملفات ويحاول إيجاد أي شيء يصلح كدليل أو كخيط يمكن أن يصل بهم إلى حلٍّ مادي.

***

داخل مكتب الطبيب النفسي (هارون)، وبعد أن رحلت آخر حالة ومعها غادرت السكرتيرة، أغلق (هارون) باب العيادة واتجه إلى مكتبه، بحث داخل خزانة عملاقة تحوي كل ملفات المرضى الذين عالجهم في الماضي ومن يعالجهم الآن، ظل يبحث داخل الخزانة لعدة دقائق حتى وجدَ ما كان يبحث عنه.

عاد إلى مكتبه وبيده ملف مكتوب عليه «ناصر المهدي»، فتح درج مكتبه وبحث عن أحد شرائط «الكاسيت» الخاصة بجلسات العلاج حتى وجده ثم أخرج مسجل الصوت ووضع الشريط وظلَّ يستمع إلى صوت (ناصر) وهو يقول:

«لم أعِ في بادئ الأمر كيف تصل تلك الأفكار إلى رأسي ولا أعلم مصدر تلك المعلومات التي وضعتها داخل روايتي وأسميتها باسمٍ لم أسمع به من قبل إلا في الأساطير من والدي في الصغر، كتبت عنهم وكأنني أراهم رَأيَ العين، تعرضت لكوابيس ولخيالات وقلت في نفسي إنه بسبب خيالي الواسع وتأثري بما أكتب، قابلني أحد معارفي صدفة وأخبرني أن أكف عن كتابة تلك الرواية، تعجبت وعندما سألته قال إن الجان يحيطوننا من كل جانب وإنهم يتربصون به وإن أكملت كتابة سأتسبب بأذى لي ولأسرتي، لكنني لم أكترث لما يقوله وأكملت وكانت النتيجة ما حدث، لقد فقدتهم جميعًا.. فقدت أعز ما أملك...»

صوت الطبيب: هل تستطيع أن تصفهم لي أو تخبرني بأسمائهم؟

– لا أريد حقًا أن أفعل ذلك حتى لا تصاب بأذى لكني أرى الإصرار على وجهك، سأخبرك باسم واحدٍ منهم يدعى عزيميل وهو قائدهم يظهر دائمًا على شاكلة إنسان، وسيم، مهندم، لبق في الحديث، ويمتلك عينين ثاقبتين لا يمكن إنكارهما أو الفرار منهما».. انتهى التسجيل.

عاد الدكتور (هارون) بظهره إلى الخلف وتذكّر تلك الليلة التي تم تسجيل تلك الجلسة بها، وتذكر أنه قابل شخصًا

بنفس المواصفات في الطريق أثناء رجوعه، كان كما ذكر (ناصر) تمامًا، مواصفات متطابقة، بدلة سوداء فاخرة وشاب وسيم وعينين لن يناسهم أبدًا، أشار له وهو يعبر الطريق ثم اختفى فجأة من تلقاء نفسه وبعد تلك الجلسة انقطع (ناصر) عن الحضور رغم كل محاولات (هارون) في علاجة حتى في المنزل.

***

ضرب الرعد في الخارج فارتعشت يده وصدمَث فنجان القهوة الذي تناثر أعلى سطح المكتب فأخذ يلملم أوراقه سريعًا خوفًا من التلف، ضرب البرق فلمح شخصًا يقف داخل الشرفة، وقف واتجه إليها وأزاح الستارة فلم يجد أحدًا، عاد كي يجفف القهوة ويعد واحدة جديدة.

داخل المطبخ وأمام النيران التي تسوي ذلك السائل السحري -القهوة- بهدوء وتروٍّ شردَ ذهن (ناصر) وأخذ يتذكر ما مضى، وبالأخص أثناء كتابته لتلك الرواية اللعينة «الطوارق»، تذكَّر مدى تمكنه من أفكاره في تلك الآونة، مدى براعته في وصف الشخصيات، مدى تركيزه في العمل حتى إنه أنهى كتابتها في شهر وحيد على غير العادة عندما يكتب راوية تتروواح المدة دائمًا ما بين ستة إلى ثمانية أشهر، تذكر أنه لم يكن مستعدًا للبدء في كتابة رواية، وأنه كان يعد

للسفر مع أسرته لقضاء عطلة شتوية في أسوان، واضطر إلى تأجيل تلك العطلة شهرًا لحين الانتهاء من الرواية، حتى إن صديقه وناشره (فريد) لم يكن مصدقًا أن كاتبه الأبرز في الدار، أنتج رواية إضافية في نفس العام بعد أن كان دائم التأخر في تسليم رواياته في ميعادها المتفق عليه.

تذكر تلك الخيالات التي كان يراها طوال وقت كتابته للرواية، تلك الكوابيس المفزعة، ذلك الهمس الذي كان يسمعه من حين إلى آخر، ما تعرض له ذات مرة عندما نظر إلى المرآة صدفة فوجد خمسة كيانات مفزعة يقفون خلفه كحراس، في أحد كوابيسه حذَّره أحدهم من استكمال ما يكتبه لكنه لم يكترث وأكمل وكانت النتيجة...

فارت القهوة فعاد إلى رشدة وأطفأ النيران بعد أن فقدَ نصف قهوته أعلى سطح البوتجاز، وقف متأففًا وبدأ في إعداد القهوة من جديد ولكن تلك المرة لم يترك الأمر لذاكرته وظل متيقظًا للقهوة تلك المرأة اللعوب.

(7)

«عهدا خطه أحدهم بيد ترتعش والآخر بنفسًا مشتعلة، عهدا لم يكن له رابح بل اثنين من الخاسرين، اختار أن يستعيذ برجلًا من الجان فزاده رهقًا وتشبث به حتى باب جهنم».

شتاء عام 1896

داخل منزل أحد أكابر القرية

مائدة طعام ممتلئة عن آخرها تنتصف صالة دار «آل صباح»، يجلس إليها أكابر القرية وهم يتناولون الطعام بجشع ونهم، أمسك أحدهم بكتف خروف ثمين وأخذ يلوك لحمه بين أسنانه وهو يقول:

- هل سنترك المتولي يشاركنا ثرواتنا وموارد قريتنا الفقيرة؟

التفت له (طه) وهو الابن الأكبر لعائلة «آل صباح».

- ما يثير قلقي حقًا اقتراب موعد تسليم الخمسة أطفال، في كل عام يطلب خمسة من أطفال القرية ولا يعودون إلى أهاليهم من جديد، لا أعلم له نقطة ضعف لكن ما أعلمه حقًا أنه يجب علينا إيقاف توسُّع نفوذه لقد أصبح أقوى من ذي قبل أضعافًا مضاعفة، أهل القرية يطلبون منه الحماية بدلًا منا.

تجرع أحدهم من كوب شاي ملتهب حتى ارتوى وقال:

- لا نستطيع أن نقف في وجهه مباشرة هل نسيت ما فعله بهمام وعذرا الأسود أمام أعيننا، رأيت المسخ بأم عيني

يلتهم عذرا عند سفح الجبل الأسود.

التفت إليه (طه) بغضب.

- وما العمل إذًا؟

ارتفع صوت رجل مسن كان يجلس على كرسي بعيد في آخر المائدة:

- المباغتة، علينا أن نباغته في غفلة منه من دون أن يشعر بنا أو يأخذ حذره منا، وأنا أرى أن نفعل ذلك الأمر سريعًا خلال أيام قبل أن نسلم له الأطفال.

حازت كلماته على قبول من الجميع وهم يلقبونه عامر الكبير، وأكملوا طعامهم المنهوب من مال فقراء القرية الذين يعملون ليلًا متصل بالنهار من أجل ملء خزائنهم بالمال والذهب وملء موائدهم بالطعام والخمور.

خرج الرجل المسن من منزل «آل صباح» واتجه صوب حقول القصب وتبدلت ملامحه إلى ملامح أنثى شديدة الجمال، حتى وصل إلى نهاية الحقل واتجه إلى الطريق الذي يقود إلى منزل المتولي ليخبره بما حدث وما يحاك له في الظلام.

***

شتاء عام 2010

داخل مكتب التحقيقات

جلست (منال) أمام الرائد (مراد) والملازم (شريف) مترددة في الحديث رغم أنها أتت بناء على رغبتها الشخصية، أشعل (مراد) سيجارة وانتظر أن تنتهي (منال) من ترددها وتتحدث، وأخيرًا نطق لسانها:

- أنا لم أروَ لكم كل شيء حدث في تلك الليلة عندما دخلت أنا وماجد بيت المتولي.. لذلك طلبت أن أقابلكم وأتحدث عن شيء منقوص لم أخبركم به.

أشار لها (مراد) أن تكمل فنظرت إليه ثم إلى (شريف) قائلة:

- هناك في الدور السفلي من البيت رأينا شيطانًا متجسدًا، ورأيت خلفه رجلًا أسود البشرة يشبه تمامًا الصورة المعلقة داخل المنزل يقف وبجانبه شاب آخر لم أرَه من قبل.

اعتدل (مراد) في جلسته.

- جيد، سأحضر الآن أحد الرسامين، وأريدكِ أن تصفي له ذلك الشاب جيدًا.

بعد عدة دقائق حضر الرسام، وأخذت (منال) في الوصف

وهي تحاول أن تتجنب ذكريات تلك الليلة وتركز في وصف ذلك الشخص حتى انتهت.

أعطى الرسام اللوحة إلى (منال) التي أمسكت بها معقبة:

- نعم، تلك الرسمة قريبة للغاية.

أنهت كلماتها وأعطت اللوحة إلى (مراد) الذي أمسك بها وقال:

- أشعر أني رأيت ذلك الشخص من قبل.

لمعت عين (شريف) وهو ينظر إلى اللوحة، ثم قال بصوت مرتفع:

- ذلك الشاب رأيته في محل العطارة الخاص بالشيخ بدر عندما مررت بجانبه.. إنه صورة ابنه على ما أعتقد وتحمل شارة سوداء.

أومأ (مراد) برأسه دليلًا على الموافقة، وأنه تذكر ذلك الموقف لما كان مع شريف.

- نعم، ابن بدر المتوفي.. هل أنتِ متأكدة من تلك المواصفات؟

ظلَّ الثلاثة ينظرون إلى بعضهم البعض في عدم استيعاب أو فَهم لما رأته (منال) بالداخل، وكيف لها أن ترى شخصًا

مات منذ سنوات بشهادة أهل الحي والجيران.

***

داخل منزل الطبيب النفسي (هارون) جلست (رشا) داخل منزلها وهي تمسك بهاتفها الجوال وتبحث عن رقم أستاذ (فريد) كي تتحدث معه بشأن ترتيب مقابلة لـ (مراد) مع (ناصر)، وجدت الرقم ونظرت إليه بتردُّد فهي تعلم مدى انغلاق (ناصر) ورفضه للغرباء حتى إنها لم تستطِع مقابلته لإبداء إعجابها بكتاباته وظلت غاضبة لشهرين عندما علمت برفضه.

ألقت هاتفها الجوال ثم أمسكت به من جديد واتصلت (بفريد).

- مساء الخير أستاذ فريد، أتمنى أن تكون بخير حال.

جاء صوت (فريد) عبر الهاتف مجيبًا:

- أنا بخير، كيف حالك أنتِ؟ أخبريني متى ستنتهين من روايتك الجديدة؟

تحركت (رشا) ذهابًا وإيابًا داخل غرفتها ثم قالت:

- اقتربت، اقتربت أن أنهيها، أنا أتصل بحضرتك من أجل طلب...

- تفضلي؟

قالت مسرعة:

- هناك ضابط شرطة يريد أن يدبر لقاء وديًا مع الأستاذ ناصر المهدي.

جاء صوته يشوبه القلق:

- ضابط؟؟؟!! هل هناك مشكلة؟

- لا، كل ما في الأمر أنه يريد أن يتحدث معه بأمر الطوارق وبيت المتولي...

صمت (فريد) لدقيقة ثم قال:

- أعتقد أن ناصر لن يوافق ما دام يتعلق الأمر بالطوارق، كلانا يعلم أنه يكره أن يسمع ذلك الاسم.

ظهرت معالم الخجل على وجهها.

- نعم، أعلم وترددت كثيرًا، لكن أيمكنك المحاولة؟ رجاء...

- سأحاول ولكنني متأكد أنه سيرفض، سأتصل به في الحال ثم أبعث لك رسالة بها رده.

ابتسمت (رشا) قائلة:

- حسنًا سأكون بالانتظار، شكرًا لحضرتك.

أنهت المكاملة واتجهت إلى الشرفة وأخذت تفكر لعدة دقائق في تلك المصادفة الغريبة، ما دخل تلك القضية برواية (ناصر المهدي) وما سر كرهه لرواية هو كتبها بنفسه، ظلت تفكر حتى وصلتها رسالة قرأتها مسرعة لتجد أن مفادها رفض (ناصر) للمقابلة.

ألقت بالهاتف أعلى كرسي قريب وظلت تراقب تساقط الأمطار في الخارج وهي تمتم غاضبة، لأنها تعلم أن (مراد) سيغضب وهي تخشى أن تراه غاضبًا.

***

انتهى (صلاح) من تسليم آخر قميص وعاد إلى محله، فصل المكواة عن الكهرباء ورتب أدواته ثم أطفأ الإضاءة وأغلق محله، صعد إلى منزله الذي يعلو المحل بجسد منهك وعقل مشتت جلس، خلع حذاءه لتظهر إحدى قدميه منقوصة إصبعان، ظلَّ يرمقمها (صلاح) بضيق للحظات ثم قرَّر أن يدخل إلى دورة المياه ويستحم.

أسفل المياه روادت الذكريات عقله وتذكر ما حدث له من قبل، عاش دائمًا بجانب الحائط أو بداخله إن صح القول، كان يخشى كل شيء وأي شيء، يخشى أن يتحدث عن الرياضة، الدين، يخشى حتى الحديث بينه وبين نفسه؛ لذلك

أصبح يمقتها، من يحيا ورأسه لأسفل لن يرى سوى تراب الأرض وطينها.. أراد التغيير، وفي المرة الوحيدة التي رفض فيها وأراد أن يبوح بما في صدره فقد إصبعين من قدمه أمام أعين ومسمع الجميع، لقد أصابه الذل والهوان أكثر من ذي قبل فعاد ملتصقًا بالحائط من جديد، ولم يقوَ على مفارقته إلا من بضعة أيام وقرر أن لا يعود إلى خوفه مرة أخرى.

أغلق تدفق المياه الساخنة ثم لف المنشفة حول خصره وغادر دورة المياه، اتجه إلى غرفة نومه وجلس فوق الفراش بعد أن ارتدى ملابسه، نظر إلى صورة تجمعه بزوجته التي لم تتحمل العيش رفقة إنسان جبان ذليل منكسر وفضلت الطلاق والزواج من رجل حقيقي، شعر بغصة في حلقه، أغلق الإضاءة وغط في نوم عميق.

***

أنهى (شريف) كوب القهوة وتفقد الحراسة المكلفة بمنع أي شخص من الاقتراب من بيت المتولي، ثم ركب سيارته وغادر وهو يشعر أنه مراقب من شيء ما يجهل هويته، أثناء قيادته كاد أن يدهس حيوانًا غريب الشكل مرَّ فجأة أمام سيارته فضغط على المكابح، وهبط من سيارته وأخذ يبحث في كل مكان لكنه لم يجد شيئًا فعاد أدراجه إلى السيارة،

وصل إلى منزله وأخذ يتلفت حول نفسه، حسه الأمني يخبره أنه مراقب عن كثب.

صعد إلى الطابق الذي يسكن به وتحرك عبر رواق مظلم يضيء كلما اقترب أحدٌ منه، وقبل أن يصل إلى باب شقته سمع وَقْع أقدام تسير خلفه لكن الإضاءة لم تستشعر ذلك، أخرج سلاحه الناري وتحرك مسرعًا في اتجاه الصوت فلم يجد أحدًا لكنه سمع صوت صراخ قادم من شقته، اتجه إلى الشقة مسرعًا وفتح الباب بتوتر ثم هدأ عندما تذكّر أنه يحيا وحيدًا وأن الشقة خالية، مسح على وجهه وأغلق الباب، شعر بنعاس شديد لم يشعر به من قبل، اتجه إلى فراشة، خلع حذاءه وفضَّل أن ينام بملابسه.

الواحدة بعد منتصف الليل فتح (شريف) عينيه وسط الظلام، نظر إلى الخارج حيث رأى رجلًا يمر من أمام الباب، بحث عن سلاحه الناري فلم يجده، اعتدل وبحث عن شيء فلم يجد إلا عصا خشبية ثقيلة الوزن، تحرك بهدوء إلى الخارج بحث في الصالة ثم المطبخ وباقي الغرف لكنه لم يجد أحدًا، أكمل بأنفاس مرتفعة واتجه إلى دورة المياه، بحث بداخلها، لا وجود لأحدهم، بحث عن سلاحه الناري لكنه لم يعثر عليه، ازدادت ضربات قلبة وتعرَّق جبينه، سمع صوت باب الشقة يفتح فهرول إليه ليجده مواربًا، ضغط على

زر الإضاءة فلم تعمل، جذب الباب عن آخره بسرعة لكنه لم يجد سوى الظلام، أغلق الباب والتفت ليجد خلفه كيانًا أسود عملاقًا يصرخ بوجهه.

أفاق (شريف) من النوم وهو يحاول التنفس، بحث عن السلاح فوجده بداخل درج الكومود بجانبه وتأكد أن ما رآه كابوس، مسح عرقه وشعر أنه كان على مشارف الموت وكأن جبلًا وضعَ أعلى صدره، حاول النوم مجددًا لكنه فشل ففضَّل أن يجلس ويشاهد أي فيلم يخرجه من ذلك الشعور المفزع.

(8)

«كلما اقتربنا خطوة ابتعدت الحقيقة خطوات وكأنها تأبى أن يسقط رداؤها وتصبح عارية أمام ناظرنا، أمعِن النظر وكن يقظًا طوال الوقت فربما سقط من أحدهم طرف خيط يقود إلى الحقيقة».

شتاء عام 1896

أمام منزل المتولي

ليلة ظلماء صماء التف أكابر القرية ورجالهم بالمشاعل حول بيت المتولي ويقودهم (طه) «آل صباح»، بحثوا كثيرًا عن ذلك الشيخ المسن صاحب الفكرة فلم يجدوه ومع ذلك عزموا على أمرهم بأن يقتلوا (المتولي) وأسرته المكونة من زوجتين وسبعة أطفال ولم تأخذهم شفقة أو رحمة بأطفاله ونسائه الأبرياء، اقتحموا المنزل وبحثوا عنه في كل مكان وعن أسرته لكنهم لم يجدوه، أصابهم الخوف، تشاجروا سويًا وظنوا أن هناك خائنًا بينهم، أرادوا أن يجدوه قبل أن يجدهم لكنهم فشلوا، خرجوا وقد أصابهم الخوف في مقتل، هطلت الأمطار فوق رؤوسهم وأطفئَت مشاعلهم، لم يبرحوا أماكنهم وظلوا في انتظاره وهم يحيطون بالمنزل.

خرج (المتولي) من أعلى منزله وعلا صوته ففزعوا وبعدوا عن المنزل ينظرون لأعلى ليجدوه يطفو في الهواء قائلًا:

- أردت لكم العزة والغنى وقوبل ذلك بالغدر، أردت لكم القوة وأردتم لي الموت، أردت لكم الخير والآن أرى ما في صدوركم.

هبط أمامهم على الأرض ثم أشار بعصاه السوداء إلى

السماء فضربهم البرق وأحالهم إلى تماثيل حجرية عدا رؤسهم، كلا مسخ على مكانته، صرخاتهم كانت تدوي في الأفق أفزعت المتبقي من أهل القرية وأخرجتهم من منازلهم يبحثون عن مصدر الصوت، كان منظرًا مفزعًا يملأ القلوب رهبة وخوف، تجمَّع أهل القرية أمامهم يضربون كفًّا على كفٍّ غير مصدقين، أكابر البلد برؤوس حية وأجساد حجرية يستغيثون ويصرخون، يتوسلون إلى (المتولي) كي يعيدهم خدمًا أسفل قدمه أو يقتلهم ويرحمهم من الألم، لكن لم يفعل أيَّ الخيارين بل تركهم حتى أكلت رؤوسهم الطيور وهم على قيد الحياة، ثلاثة أيام ثم ابتلعتهم الأرض وبعدها اختار (المتولي) خمسة من أبنائهم وقدَّمهم إلى «الطوارق» قرابين وأصبح هو الآمر الناهي في تلك القرية وذيع صيته في قرى الصعيد كلها.

دخل المتولي إلى تلك الحجرة المنعزلة برفقة ابنه منصور وهو يحمل مشعلًا بيد وباليد الأخرى يمسك بالسكين، اقترب المشعل إلى وجه رجل كبير السن مقيد ويبدو عليه الإرهاق والتعب الشديدين، أعطى المتولي إلى ابنه السكين وقال:

- اطعنه عدة طعنات في الصدر، تذكّر هذا اختبار، لكن وأنت وعدتني أن تجتازه، أنت ابني الأكبر ووريثي، أنت من سيرث عهدي وقوتي.

أمسك الطفل بالسكين واقترب من العجوز وقبل أن يطعنه ارتعشت يداه ووقعت السكين أرضًا وأخذ يتراجع إلى الخلف، ظهرت معالم الغضب على وجه المتولي وأمسك بالسكين وطعن العجوز عدة طعنات حتى فارق الحياة، نظر إلى منصور وجذبه من يده إلى خارج الغرفة وهو ينهره.

***

شتاء عام 2010

داخل إحدى المطاعم

جلس (مراد) وخطيبته داخل إحدى المطاعم الفاخرة وهم يتحدثون عن مستقبلهم سويًا، بدا الاستياء واضحًا على وجه (رشا) بسبب تأجيله للزواج لعدة مرات الأمر الذي أربكها وأشعرها بضيق وعدم الثقة في الطرف الآخر لكنه دائمًا ما كان يجيد مصالحتها وإخبارها أن تلك القضية تمثل عبئًا كبيرًا على كاهله وأنه فور انتهائه منها سيتزوجان على الفور.

أحضر أحد العاملين بالمطعم الطلبات وبدأوا في تناول الطعام، تذكَّر (مراد) أمر الكاتب (ناصر) فسألها:

- هل تمكنتِ من تحديد ميعاد مع الأستاذ ناصر المهدي؟

نظرت له بحزن.

- رفض أن يقابلك عندما علم أن الأمر يتعلق بالطوارق وبيت المتولي، هل تريد مني أن أحاول مرة أخرى.

ابتسم لها (مراد) قائلًا:

- لا بل أريد عنوانه، سأذهب إليه بنفسي وأتحدث معه حتى وإن أبى هو ذلك.

تركت (رشا) الشوكة من يدها ثم قالت بغضب:

- لا تفعل ذلك، احترم الخصوصية، لقد تعرض لأزمة نفسية بسبب روايته التي تتحدث عن الطوارق وبيت المتولي.

تعجب (مراد) من ذلك القول فسألها:

- ما الذي يمكن أن يصيبه جراء كتابته لرواية ذات طابع رعب؟

نظرت له قائلة:

- بعد كتابته للرواية تعرضت أسرته لحادث أثناء سفرهم إلى الأقصر، وربط ناصر ما حدث بكتابة روايته، ظلَّ فترة ليست بالقصيرة يخضع للعلاج النفسي على يد والدي لكن دون نتيجة جديدة، ففضل الانعزال ورفض العلاج، على كلٍّ سأعطيك العنوان لكن عدني أن تحترم رغبته إذا أراد الصمت.

تراجع (مراد) إلى الخلف ونظر إليها.

- أعدك أنني سأحترم رغبته.

ابتسمت (رشا) ثم عادت لتكمل طعامها وأشارت إليه أن يكمل هو الآخر:

- أعتقد أن ذلك المطعم من أفضل المطاعم التي تناولنا بها

الطعام سويًا.

أومأ (مراد) برأسه دليلًا على الموافقة وأخذ يلوك الطعام داخل فمه وهو يفكر في ما ستؤول إليه الأمور مع الكاتب (ناصر المهدي)، وكيف يقنعه أن يتحدث معه عن «الطوارق» وعن بيت المتولي بإرادته الحرة دون أن يضغط عليه.

***

حاولت (منال) لأكثر من أسبوع مراقبة البيت والشارع ومن يقيمون في منازله عسى أن تحصل على معلومة تفيدها في تحقيقها الصحفي، لكنها لم تتمكن من الحصول على أي معلومة سواء من السكان أو من أحد العساكر، أوامر الرائد (مراد) كانت صارمة إلى رجاله بأن يتم التعتيم على كل ما يحدث هنا وأن يبعدوا الصحافة قدر الإمكان، حاولت بكافة الطرق لكنها فشلت حتى (صلاح) رفض أن يزودها بأي معلومات إضافية رغم إغرائها له بالمال رفض رفضًا قاطعًا وخاصة بعدما حدث في تلك الليلة التي كادت أن تنتهى بموت أحدهم وكأن المشرحة ينقصها قتيل إضافي.

عادت إلى الجريدة خائرة القوى وخائبة الرجاء، جلست إلى مكتبها دون هدف واضح، أخذت تفكر مرارًا وتكرارًا أن تعاود الكرة وتدخل إلى ذلك المنزل بمعاونة أحد أصدقائها لكنها تذكرت ما حدث (لماجد)، أخرجت الهاتف واتصلت به

كي تطمئن عليه وظلت تحدثه لمدة تجاوزت الساعة وعندما أغلقت هاتفها وصلتها رسالة من (صلاح) يخبرها أن لديه معلومات جديدة عن القضية ولكن مقابل ألف جنيه تلك المرة، وافقت على مضض وأرسلت له رسالة تطلب منه أن يقابلها بعيدًا عن الشارع وأرسلت له عنوانًا.

***

داخل منزل الكاتب (ناصر المهدي) تحرك بخطوات بطيئة شاردة وجلس أمام مكتبته بوجه حزين وصدر يعلو ويهبط من الأسى وعينان تزرفان الدموع ندمًا وقهرًا، يحاول إرغام عقله على النسيان وأنى له ذلك، تذكر ذلك اليوم وتلك الابتسامة التي كانت تعلو وجه زوجته، ضحكات ابنتيه، أسئلتهما المتكررة عن ميعاد عودته من السفر. ودعهن وهو في قلبه خوف دفين لا يعلم مصدره منذ أن نشر روايته التي لاقت نجاحًا كبيرًا وقبولًا عند كل من قرأها. اتجه إلى منزل أخته الوحيدة التي تحيا بالإسكندرية، اعتاد أن يزورها في ذكرى وفاة والده المهدي، قضى اليوم برفقتها حتى أتاه اتصال قلبَ حياته رأسًا على عقب، لقد اشتعلت النيران بمنزله، لم يعِ كيف استطاع أن يصل من الإسكندرية إلى القاهرة في تلك المدة القصيرة، وصل إلى منزله ليجده متفحمًا، رأى المواساة في أعين الجيران وكل من يقابله،

اندفع إلى غرفة النوم فوجد جثمان زوجته وابنتيه وقد التهمتهن النيران حتى تفحمن، لم يدرِ بنفسه وشعر أن الأرض تدور من حوله ثم سقط وأصيبت رأسه.

بعد عدة أيام، وبعد أن استعاد عافيته علم أنه ظل في غيبوبة لمدة اسبوع رأى فيها كوابيس عن تاريخ مظلم لأحد اعتى السحرة يتكلم معه ويروي له عن تعاليم الجان وأنواعهم لكن كل ما كان يهمه هو أسرته، علم أنهم ماتوا جميعًا في تلك الحادثة إلا (يامن) ابنه الأصغر الذي كان برفقته في السفر، بكى لأسابيع حتى جفت عينيه وكاد أن يموت قهرًا، لم يتحمل صدمة فراقهم، لم يعِ ما حدث ولا يعلم له سبب سوى أنه أكمل في كتابة تلك الرواية وأن ما حدث كان بعد أن حذروه مرارًا وتكرارًا لكنه لم ينصت، اعتقد أنها أضغاث أحلام لكنها كانت الحقيقة، هو من قتلهم جراء ذنب لم تقترفه يداه.

(9)

«خُلق آدم ومعه نبتت شجرة الزقوم، كان الطاووس طاووسًا لامعًا يمتطي الحية، خلقت حواء فأثمرت شجرة الزقوم واستعرت النيران وهبط الطاووس من جنته ثم هبطوا جميعًا إلى أرض موحشة، رقعة صماء بسور متين وحينها لم يعد الطاووس طاوسًا ولا لآدم رداء».

شتاء عام 1898

داخل منزل الشيخ رضوان بإحدى قرى الصعيد النائية

اجتمع أهل القرية التي أصبحت خاوية على عروشها، بعد أن بارت أرضها وماتت أنعامها وسرق مالها وجفت آبارها وساد الوباء القرية، فأصاب شبابها وأصاب الجنون رجالها ولم يتبقَّ أو ينجو سوى قلة قليلة تلتزم بيت الله وتلتف حول الشيخ (رضوان) عسى أن يبدل الله الأحوال.

سنوات عجاف دامية، كثر القتلى وتعفنت الجثث في الطرقات وهاجر من خشي على أهله سوء المآل، حاول الشيخ (رضوان) الوقوف في وجه (المتولي) لكنه فشل في كل مرة لكنه كان ينجو من هجمات متكررة من الطوارق وهذا ما أصاب (المتولي) بالجنون والحيرة، فلم يقف أمامه رجل إلا وهلك وعندما كان يسأل «الطوارق» كانوا يخبرونه أنه محفوظ يمتلك السر، لديه كلمات رادعة تعلمها، حاول كثيرًا أن يكسبه ويعطيه المال لكنه رفض وطلب منه الرحيل عن القرية، لم يكن (المتولي) ليرحل إلا رغمًا عنه فقد عاشَ بين أهلها ذليلًا فيما مضى والآن هو يحكم لكنه يحكم رمادًا، أشباه آدمين يسيرون مرضى مسلوبين العقول، يدفنون أكثر مما يلدون، هرب الأطباء والأعيان وتركوا الرعية بين براثن الموت تحت يد (المتولي).

فى إحدى الليالى وقبل أن تصاب القرية بالوباء والجوع عاد الشيخ رضوان إلى المنزل باكرًا وقد أصابه النعاس قبل الموعد الذي اعتاد عليه ولم يستطع أن يقاوم فنامَ، حلم أن هناك أحدًا يملي عليه بعض الكلمات ويخبره أن يحفظهم لأنهم الدرع الاوحد الذي سيحميه هو من حفظها من الطوارق ومن المتولي وعندما أفاق ظلَّ يردّد (حصن آمن من شر كامن في جبل أسود بباب نافذ، حصن آمن من شر كامن في جبل أسود بباب نافذ).

***

شتاء عام 2010

بالقرب من شارع المتولي

جلست (منال) داخل سيارتها في انتظار (صلاح) أن يأتي لها كما اتفقوا في الليلة السابقة، مكثت دقائق تنتظر قدومه حتى ظهر في انعكاس المرآة يتلفت حول نفسه وهو يخرج من شارع المتولي، اقترب من السيارة وأخرج هاتفه الجوال متسائلًا:

- أين المال؟

نظرت له في غضب مجيبة:

- المال موجود ولكن ما الذي حدثتني بشأنه؟

فتح (صلاح) هاتفه الجوال وفتح صورة غريبة لشيطان يقف داخل شرفة بيت المتولي، أرادت أن تمسك الهاتف فأبعده عنها ومدَّ يده طالبًا المال، أمسكت بالحقيبة وأخرجت منها ألف جنيه وأعطتها له فأعطى لها الهاتف، أخذت تمعن النظر في الصورة فوجدتها مخيفة لأقصى درجة لكنها يبدو عليها أنها غير حقيقية، فسألته:

- متى التقطت تلك الصورة؟

تلعثم في الكلام:

- أمس، التقطتها أمس بعد صلاة العشاء.

أمسكت (منال) بالمال وجذبته من ملابسه.

- أنت فاشل للغاية في الكذب، أنت لا تستحق المال، يبدو أنك محتال محترف، اهبط من السيارة، لا أريد أن أراك مجددًا.

أشار لها (صلاح) أن تهدأ ثم قال:

- تلك الصورة مزيفة حقًّا لكني أمتلك حقيقة ما حدث داخل البيت وأعلم جيدًا كيف قتل الثلاثة ومن قتلهم، أريد خمسين ألف جنيه كي أرحل من ذلك المكان الموبوء وسأخبرك بكل شيء، أنا صادق تلك المرة.

لمعت عين (منال) لكنها ظنت أنه يتلاعب بها، فتحت الباب وأخرجته من السيارة ثم انطلقت مسرعة تاركة إياه يقف في منتصف الشارع بعين دامعة، عاد بخُفيّ حنين إلى الشارع ليجد الشيخ (بدر) ينظر له في حدة فظهرت عليه ملامح الخوف واتجه إلى منزله مسرعًا.

***

أنهى (بكر) عمله وأغلق السوبر ماركت بعد أن انتصف الليل، تحرك خطوات حتى وصل إلى منزله الذي يبعد

خطوات عن المحل، دخل من باب العقار واتجه مباشرة إلى الشقة المقابلة، فتح بالمفتاح ودخل إلى شقته ضيقة المساحة قليلة الإضاءة، وضع ما يحمله أعلى منضدة قريبة واتجه إلى غرفة نوم ابنه الوحيد، فتح باب الغرفة ليجد ابنه يجلس فوق كرسيه المتحرك ينظر عبر فتحة ضيقة من الشباك، اقترب منه وقبّل رأسه قائلًا:

- لقد أحضرت العشاء، أريد أن نأكل سويًا كما كنا نفعل زمان.

نظر له الشاب وتحدّث بلسان ثقيل:

- زمان!! أنا لم أفعل شيئًا كي أظل جالسًا هكذا غير قادرًا على الحركة أو السير لبقية حياتي، لم أقترف أي ذنب، لم أسرق، لم أقتل، لم أظلم أحدًا، لماذا حدث لي كل هذا يا أبي، لماذا انتهى بي المطاف على ذلك الكرسي، لماذا أظلمت الدنيا فجأة وأنا لم أضر أحدًا من قبل، لا أريد الطعام ولا أريد أن أشارك أي أحد في أي شيء.. أريد أن أمكث وحيدًا في الظلام حيث أنتمي وسأظل.

انهمرت دموع (بكر) وحاول احتضان ابنه فدفعه وظلَّ معلقًا وجهه بتلك الفتحة الضيقة التي تمثل له الدنيا، سقطت دموعه ساخنة ملتهبة وهو ينظر إلى المارة في الخارج، مع كل ضحكة ينفطر قلبه إلى نصفين ومع كل خطوة تتمزع

أمعاؤه، يتذكر ما مضى، كان في آخر عام دراسي من كلية الهندسة، يتذكر وجه زميلته التي أراد خطبتها بعد التخرج، يتذكر ابتسامتها الملائكية وينفطر قلبه عندما يعي أنها الآن باتت زوجة أحدهم وربما أحد زملائه من قبل، تبيت في حضنه ويبيت وحيدًا يرتجف، تطعمه بيدها ويبصق هو الطعام قنوطًا، تدفئ فراشة وينام هو على لوحٍ من الثلج، تنير حياته ويقبع هو داخل ظلامه الأبدي، روحه تئن وقلبه يخفق يكاد أن ينخلع من بين ضلوعه، أغلق نافذته على الحياة وأدار الكرسي بيده ثم اتجه إلى فراشة، بصعوبة ومشقة استطاع أن يلقي بجسده عليه، نظر إلى السقف المتشقق وتمنى لو ينهار عليه فينهي حياته البائسة لكنه يعلم أنه قليل الحظ في تلك الدنيا التي تعشق وأن تراه جريحًا ذليلًا يائسًا، أغمض عينه هربًا من حاضر مظلم أملًا في ساعات مضيئة حتى ولو كانت من الخيال.

***

أوقف (مراد) سيارته أسفل العقار الذي يقطن فيه (ناصر المهدي) وفور أن رآه البواب اقترب منه مسرعًا وهو يقول:

- ما الذي تبحث عنه، أستطيع مساعدتك، هل تبحث عن عنوان ما أو شخص ما؟

هبط (مراد) من السيارة واقترب من البواب قائلًا:

- الأستاذ ناصر المهدي، أريد أن أقابله.

نظر له البواب نظرة متفحصة ثم قال:

- لكنه يأبى أن يقابل الغرباء، هل أنت من قرائه أم صحافة؟ ما الذي تريده من أستاذ ناصر؟

أخرج الرائد (مراد) الكارنيه الخاص به وأعطاه إلى البواب الذي اعتدل في وقفته فور أن رأى كلمة رائد وقال:

- أعتقد انه لا يمانع من مقابلة الضباط، تفضل معي سأريك شقته.

صعد (مراد) برفقة البواب عبر المصعد ثم اتجهوا إلى شقة ناصر، وقف البواب أمام الشقة وقال:

- هذا هو المنزل، إذا أردت مني أي خدمة أنا في الاسفل أمام العقار.

تحرك البواب مبتعدًا عن الباب وهبط السلالم مسرعًا، طرق (مراد) باب الشقة فلم يجِب أحد، رن الجرس وانتظر حتى سمع صوتًا من الداخل يسب البواب الغبي الذي يطرق الباب من دون أن يطلب منه شيئًا، فتح الباب وظهر من خلفه (ناصر) وهو في غاية العصبية التي تحولت إلى ريبة عندما رأى (مراد)، تراجع إلى الخلف قائلًا:

- مَن أنت؟ ما الذي تريده؟ أنا لا أقابل صحافة أو قرَّاء، من فضلك ارحل.. أنا على وشك النزول والذهاب إلى مشوار هام للغاية.

مدَّ (مراد) يده بالكارنيه في اتجاه (ناصر) وهو يقول:

- أنا لست صحفيًا أو قارئًا أنا ضابط شرطة، حاولت أن أحصل على ميعاد منك عن طريق أستاذ فريد لكنك رفضت فقررت أن آتي بنفسي وأقتطع من وقتك الثمين نصف ساعة.

نظر له (ناصر) ثم نظر الكارنيه وكأنه يتحقق مرة إضافية من الهوية ثم رجع إلى الخلف وأشار له أن يدخل.

بعد ربع ساعة جلس (مراد) داخل مكتب ناصر وأخذ ينظر حوله في كل مكان محاولًا تفحص الكتب ومعاينة محتويات المكتب كما تعوَّد منذ أن أصبح ضابط شرطة، دخل (ناصر) إلى المكتب يحمل صينية موضوع أعلاها فنجانين من القهوة، وضعها أعلى المكتب ثم جلس في مكانه خلف مكتبه الضخم وقال:

- تفضل القهوة، وأثناء شربنا لها أريد أن أعلم سبب إصرارك على مقابلتي.

مدَّ (مراد) يده وأمسك بفنجان القهوة وظل صامتًا طوال شربه لها حتى انتهى ثم قال:

- هناك جريمة قتل وقعت في أحد البيوت وأنا هنا لأني أعتقد أنك من الممكن أن تساعدني في حل تلك الجريمة لأنك دارس للقانون ولديك ماجستير في القانون الجنائي، هذا بالإضافة إلى براعتك في كتابة روايات الجريمة المعقدة، اعتبر أنني أريد استشارتك بحكم خبرتك.

نظر له (ناصر) بحذر.

- أريد أن أعلم أكثر عن تلك الجريمة، أين وقعت؟ مَن المشتبه بهم؟ أريد المزيد من المعلومات.

مسح (مراد) على أنفه مجيبًا:

- الجريمة حدثت لثلاثة رجال داخل منزل يُدعَى بيت المتولي.

اهتز الفنجان في يد (ناصر) لكنه تماسك حتى وضعه وانتظر أن ينتهي (مراد) من كلماته فأكمل:

- والمشتبه به بناء على أقوال الشهود والجيران، إنهم من الجان.. جان الطوارق.

وقف (ناصر) مسرعًا وارتفع صوته قائلًا:

- لا يمكنني مساعدتك، أطلب منك أن تغادر الآن، رجاء لا تجعلني أندم على السماح لك بالدخول.

وقف (مراد) متعجبًا من ردة فعله المبالغة للغاية وتحرك في اتجاه الباب وتبعه (ناصر)، كلما أراد الحديث أو الحصول على معلومة فيردّ عليه (ناصر) بحدة حتى وصلوا إلى الباب، أغلق خلفه الباب بقوة وجلس أرضًا وأخذ يرتعش ويمسح على كتفه في توتر وخوف، وعلى الطرف الآخر من الباب رسمت كل آيات التعجب على وجه (مراد) الذي أشعل سيجارة وهبط السلام ثم جلس داخل سيارته ينتظر أن تسنح له الظروف بمقابلته من جديد.

***

بعد مرور ساعتين خرج (ناصر المهدي) من باب العقار وركب سيارته وانطلق بها مسرعًا وتبعه (مراد)، خرج على طريق الفيوم وظلّ سائرًا حتى وصل المقابر التي تطل وحيدة وسط الصحراء النائية، تحرك بسيارته بين الأحواش حتى وصل أمام أحدهم وهبط من سيارته وظلّ واقفًا متأثرًا ينظر إلى الحوش من الخارج.

خلع نظارته الشمسية وبدأ في البكاء والحديث مع زوجته الراحلة وأولاده، وصل (مراد) بسيارته وأوقف محركها ثم هبط منها وظلّ مراقبًا لما يحدث وانتظر الوقت المناسب عندما فرغ (ناصر) من الدعاء والحديث والبكاء، اقترب منه قائلًا:

- علمت من خطيبتي التي تنشر مع نفس الدار التي تنشر لك أنك تعرَّضت في السابق لحادثة وأنك فقدت أسرتك بعدها، لا أريد أن أكون متطفلًا وأخبرك أني أعلم المزيد لكنني حقًّا بحاجة إلى مساعدتك، لا أطلب منك الكثير، سأعقد معك اتفاقًا أرجو أن تقبله، لن أسألك عن الطوارق وعن بيت المتولي مقابل أن تساعدني في حل تلك القضية.

انهى كلماته ومد يده بالسلام وانتظر، نظر (ناصر) إلى يده ثم سلم عليه وقال:

- موافق سأساعدك وبعدها لا أريد أن أراك مجددًا.. اتفقنا؟

ابتسم (مراد) وأخرج سيجارة أعطاها إلى (ناصر) وأشعلها له ثم وقفا سويًّا يتحدثان، بدأ (مراد) يشرح له ما حدث داخل المنزل ويروي له أقوال الشهود ويخبره بنتائج المعمل الجنائي والطب الشرعي.

***

بعد يوم شاق، وبعد أن رحل الزبائن من القهوة وخلو شارع المتولي من المارة لم يتبقَّ سوى رشيد وأعمدة الإضاءة وذلك البيت اللعين الذي يطل من بين ثنايا الظلام فيمثل شيطانًا يجلس يسد الطريق في انتظار ضحيته القادمة، لم يكف ذلك البيت في يوم عن إرهاب القلوب والعقول معًا،

أغلق رشيد مفاتيح الإضاءة ثم أغلق باب القهوة واتجه إلى منزله الذي يعلو مكان عمله.

دخل إلى حجرته المبعثرة أشياؤها وبدأ في خلع ملابسه تحضرًا للوقوف أسفل المياه الدافئة طويلًا كي يخرج شقاء اليوم وبرودة الطقس من بين عظامه، فور أن خلع التي شيرت ظهرت آثار للحروق تحتل جزءًا كبيرًا من ظهره، نظر إليها في انعكاس المرآة محطَّمة الجوانب وتذكَّر ما حدث بالماضي، تذكر تلك الليلة التي حاول فيها الدفاع عن سعاد، تلك الفتاة التي عشقها من كل قلبه وأراد الزواج منها في يوم من الأيام، حلم لم يكتمل كسائر أحلامه التي وُئدَت فور ولادتها داخل جوانب عقله الضئيل، لم يُمنَح قوة عقل أو جثمان لكنه مُنحَ الكثير من الرحمة والرضا بكل ما هو مكتوب، ادخر الجنيهات على مدار السنوات حتى أصبح لديه ما يكفي لشراء أثاث جديد وتنظيف شقته الضيقة حتى تليق بحبيبته سعاد، أخبرها برغبته ووافقت، وبعد أن سطعت شمسه أسقطها فاجعة أحلت به وبسعاد، سلبت من بين يديه وعندما أراد رد الصاع نكل به أمام الجميع وتركت تلك الحروق كعلامة مخزية عن ضعفه وعن مدى قسوة الحياة، في الحقيقة أصابت المياه الملتهبة قلبه وليس صدره، لم يكن ألمه خارجيًا بل كان ينزف من الداخل قهرًا و ظلمًا، أغلق باب قلبه ومعه باب سعاد لكن عقله أبى على محو الذكريات

بل ظل يذكره في كل ليلة قارسة البرودة بما حدث، سلب حلمه وحبيبته في آن واحد وكأن الحياة أبت أن تعطيه متنفسًا لأيام قبل أن تغرقه في مستنقع اليأس.

ألقى بملابسه ومسح دموعًا خانته وهربت من بين جفونه، اتجه إلى الحمَّام ثم فتح تدفق المياه الساخنة ووقف أسفلها يتحسس جراح ظهره وقلبه غير عابئ بمدى سخونة المياه المتصببة فوق رأسه.

(10)

«الكلمة هي مفتاح كل شيء وبها خُلِقَ كل شيء وبها ينتهي كل شيء، مَن أتقن الكلمة فتحت له أبواب كل شيء بخيرها وشرها، ومَن استهان بها رجم في نار سوداء محرقة إلى الأبد، ابحث عن الكلمة وستجد الحقيقة».

شتاء عام 1898

أمام منزل المتولي في إحدى قرى الصعيد النائية

مئات المشاعل يحملها رجال ونساء وأطفال القرية يسيرون خلف الشيخ (رضوان) في اتجاه بيت المتولي، تساقطت الأمطار بغزارة فوق رؤوسهم وضرب البرق كل موضع لكنهم أكملوا طريق الخلاص وبصوت واحد يرددون «الموت للمتولي وشياطينه».

أخذوا يرددون تلك الكلمات حتى وصلوا أمام بيت المتولي وانشقت الصفوف ليخرج من بينها الشيخ (رضوان) وقد ارتفع صوته قائلًا:

- ارحل يا المتولي ارحل أو نحرقك أنت ومَن معك، أهل القرية لن يعودوا إلى بيوتهم الخربة ولا إلى أبنائهم المرضى ولا إلى أنعامهم الشاردة إلا برحيلك، لا مكان لك هنا أنت وشياطينك.

ظهر (المتولي) فوق منزله وهو ممسك بعصاه التي تحمل رأس ثعبان أسود، وقال بصوت جهور:

- تلك هي فرصتكم الوحيدة والأخيرة أن ترحلوا إلى منازلكم، من سيمكث سيموت.

ارتفع صوت الشيخ (رضوان) وقال مخاطبًا أهل القرية:

- مَن يرحل يموت عاجلًا أم آجلًا بأمر الله، ومن يمكث يضعف ذلك النجس رددوا خلفي: (حصن آمن من شر كامن في جبل أسود بباب نافذ، حصن آمن من شر كامن في جبل أسود بباب نافذ)..

ارتفع صوت أهل القرية مرددين، ظهرت معالم الخوف على وجه (المتولي) وحاول استخدام عصاه فلم يفلح، دخل إلى منزله وأخذ ينادي على أعوانه «الطوارق» فلم يظهر منهم سوى واحد على شكل آدمي متعرق الجبين وهو يقول:

- لا سُلطة لنا هنا بعد اليوم، السبيل الوحيد هو الهروب الآن أو الموت لك ولنا.

ارتعشت يد (المتولي) لأول مرة منذ سنوات وكادت أن تسقط العصا من يده، دخل غرفة سرية كان يخبئ بها عائلته وبقية أشيائه التي لملمها سريعًا وخرج من الغرفة فوجد «الطوارق» في انتظاره، ارتفع صوته وقال لأسرته:

- أغمضوا أعينكم ولا تفتحوها حتى آمركم.

أغمَضوا أعينهم كما أمرهم، بينما ظلَّ واحدٌ فقط ينظر إلى «الطوارق» بخوف وفزع ففقد بصره وظل يصرخ في أبيه أنه لا يرى، سقطت دمعة من (المتولي) وحاول أن يمسكه

لكنه فشل ومنعه أحد الطوارق، التف «الطوارق» حول الأسرة ثم اشتعلوا وكونوا حلقة من النار ارتفعت إلى السقف ثم اختفت بمن داخلها وظلَّ ذلك الطفل يبكي وينادي على أبيه.

في الخارج أخذ الشيخ (رضوان) وأهل القرية يلقون بمشاعلهم داخل المنزل حتى احترق عن آخره، وظلت النيران تأكل جدرانه حتى أصبحت الشمس في كبد السماء، هدأت النيران ودخل الشيخ (رضوان) ومَن معه بين الحطام باحثين عن المتولي وأسرته فلم يجدوا سوى جسد متفحم لطفل في أحد أركان المنزل المتهدم، بكى الشيخ (رضوان) لمصاب الطفل ونظر إلى أهل القرية وقال:

- أذهب الله عنا البلاء، فلنحسن العمل ونكمل ما بدأناه سويًا. (حصن آمن من شر كامن في جبل أسود بباب نافذ، حصن آمن من شر كامن في جبل أسود بباب نافذ).

***

شتاء عام 2010

داخل محل عطارة الشيخ بدر

جلس الرائد (مراد) برفقة الشيخ (بدر) بينما ظل الكاتب (ناصر المهدي) يتفقد اللوحة المعلقة (لخالد) ابن بدر وأخذ يتفحص في مواد العطارة وسط أنظار متعجبة من الاثنين، دخل (شريف) إلى المحل وجلس بجوارهم، لمح (ناصر) وجود باب خلف بعض من الشكائر فطلب أن يرى ما خلفه، بعد لحظات ظهر الباب الذي لم يلحظ وجوده (مراد) ولا (شريف) من قبل وفتحه لهم الشيخ، دخل (ناصر) إلى المخزن وتبعه البقية، ظل بالداخل لنصف ساعة، أخذ يمرِّر يده على الحوائط ويستنشق أدوات العطارة بطريقة غريبة أقرب إلى الهزل، انتهى وخرج ليقف في منتصف الشارع أمام محل العطارة، ثم أخذ يتجول في الشارع على غير هدى بينما ظل الضابطان برفقة العجوز (بدر) الذي نظر إلى صورة ابنه وقال:

- هو فقط مَن كان يساعدني، كان يدي وقدمي وعيناي، خالد كان معيدًا بكلية العلوم، يذهب صباحًا إلى الجامعة ثم يعود بعد الظهر كي يساعدني في ترتيب المحل وإدارة شؤونه، لم يكن عاقًا أو ظالمًا بل كان إنسانًا سويًا يعلم ما له وما عليه، وكأن تلك الدنيا تأبى أن تتم سعادتنا، حدثَ ما

حدث ولا نقول إلا ما يرضي الله، إنا لله وإنا إليه راجعون.

أنهى كلماته وبدأ في البكاء الذي تبعه سعال مرتفع، اقترب (ناصر) على صوت السعال ثم قال:

- تحتاج إلى الراحة التامة يا شيخ بدر وعليك أن تبتعد عن الادخنة الناتجة عن التفاعلات الكميائية هي ما تسببت في حساسية صدرك الان.

نظر له الشيخ (بدر) بتعجب ثم ابتسم ونظر في ساعته قائلًا:

- وجبت العشاء، اسمحوا لي أن اذهب إلى الجامع فقد حان وقت الاذان.

خرجوا جميعًا من المحل واغلق خلفهم الشيخ (بدر)، ثم تحرك سريعًا في اتجاه المسجد وظل (ناصر) يرمقه بنظرة ذات مغزى.

***

أخذ الرائد (مراد) الكاتب (ناصر) في جولة سماع أقوال الجيران وقدمه بصفته محققًا مختصًا. في بداية الأمر جلسوا مع (صلاح) المكوجي الذي بدا مرتبكًا لكنه تدارك خوفه وارتباكه ببعض من الفاكهة وقدّم لهم الشاي الذي

يجيد إعداده، وبعد أن جلسوا برفقة (صلاح) لمده تجاوزت الساعة اتجهوا إلى منزل (ليلى) أرملة رشاد وأخذوا يتحدثون معها بينما يتحرك (ناصر) داخل المنزل بأريحية ويتفحص كل شيء حتى إيصالات الغاز والكهرباء، نظر (ناصر) إلى أحد الأطفال ثم تذكّر شيئًا ما اوبتسم.

اتجهوا فيما بعد إلى محل (بكر) وطلب (ناصر) أن يرى منزله فتعجب من ذلك الطلب، ثم وافق على مضض، تفاجأ الضابطان بوجود ابن لبكر يجلس على كرسي، تحدثوا معه بصعوبة ثم تركوه وغادروا.

اتجهوا إلى بيت المتولي وظلوا هناك قرابة الساعة التي قضاها (ناصر) وهو يتفقد كل الغرف داخل البيت، الدور العلوي والسفلي، الحديقة الخربة، دورات المياه، كل شيء داخل المنزل، ثم وقف أمام صورة المتولي لعدة دقائق ينظر لها مبتسمًا، شعر أنهم تأخروا عليه فذهب يبحث عنهم في كل مكان ليجدهم في الدور السفلي يوجهون الكشافات في اتجاه حائط خالٍ وعندما اقترب منهم فزعوا وأخبروه بروايات متناقضة بأنهم رأوا نارًا مشتعلة ثم باب يفتح بداخل الحائط، ظل مبتسمًا لهم ويطمئنهم ثم أكملوا بحثهم حتى انتهوا وخرجوا واحدًا تلو الآخر.

جلسوا ثلاثتهم على القهوة وأخذوا يتحدثون ويسألون

(ناصر) عن أسباب أفعاله الغريبة، فلم يكن يجيبهم بل كان شارد الذهن يفكر كثيرًا ويطيل الصمت.

انتهوا من شُرب القهوة ثم طلب منهم (ناصر) أن يذهب معهم إلى مكتب التحقيقات كي يطلع على «الفديوهات» والتقارير الخاصة بالمعمل الجنائي والطب الشرعي.

***

بعد مرور ساعة من قراءة (ناصر المهدي) للتقارير الخاصة بالطب الشرعي والمعمل الجنائي ومراجعة «الفيديوهات» مرات عديدة، جلس وبدأ في قراءة التحريات وأقوال الشهود والجيران.

مضت ساعة أخرى وكان قد انتهى من التفحُّص والقراءة ومن خمسة فناجين قهوة وعلبة سجائر «إل إم» أحمر، نظر إليهم في هدوء ثم قال:

- لم يكن الشيطان هو القاتل، لا علاقة للجان بالموضوع، ذلك البيت خالٍ من كل ظواهر الماورائيات، مَن فعل تلك الجرائم بني آدم أو ربما أكثر من واحد لدى بعض الشكوك إن صحَّت ستحل تلك القضية على الفور.

اعتدل (مراد) ومسح على وجهه هو يقول:

- وما دليلك على ما تقوله؟

اتجه (ناصر) إلى الشرفة ثم فتحها ليغزو الهواء البارد المكتب وقال:

- لدي العديد من الأدلة لكنني أحتاج مزيدًا من الوقت، بضعة أيام على أكثر تقدير وسأعود لكم بالخبر اليقين.

أنهى كلماته واتجه إلى باب المكتب، وقبل أن يفتحه عاد من جديد إلى المكتب وأمسك بعلبة سجائر وهو يقول:

- أريدها، اعتبرها مقابل أجري.

تركهم وغادر المكتب بينما ظلوا جالسين يبدو عليهم الإرهاق والتعب من يوم طويل أرهقهم بدنيًّا وذهنيًّا.

(11)

«أتسمع ذلك الصوت المخيف؟ اقترب وأنصِت له، ادفع الباب وتحرك إلى الداخل، نعم أعلم أن هناك ظلامًا قاتمًا وأن قلبك الضعيف أوشك على التوقف لكن ثق بي أنها فرصة لن تتكرر لا تضيعها رجاءً، في جوف الظلام تقبع الحقيقة ومن بين كل ذلك الصخب الكاذب هناك صوت صادق ضئيل، أنت على أعتاب الحقيقة الآن ولا ينقص سوى أن تخطو إلى الداخل.. إلى داخل الظلام حيث النور مستتر».

شتاء عام 1900

أحد أحياء القاهرة

بعد سنتين من التشتت وجد (المتولي) ملاذه أخيرًا؛ قطعة أرض فوق مقبرة فرعونية بها الكثير من طعام الجان «الزئبق الأحمر»، استطاع أن يشتريها بثمن بخس من مالكها وبدأ في بناء بيته.. «بيت المتولي» وبين حين والآخر كان يحفر في صمت حتى وصل إلى باب القبر، وبمساعدة «الطوارق» فُتح له كنز لم يكن يحلم به، برديات لساحر عتيق كان يدعى (منتوحتب)، كاهن أبرم عهدًا مع عشرين من ملوك الجان صنعوا له كتابًا يدعى «السجل الأسود»، استخدمه كثيرًا وأوصى أن يدفن معه، كان بمثابة كنز خاص بالنسبة للمتولي فبه امتلك سلاحًا جديدًا.

سنوات حكمَ المنطقة بشرّه وسحره وتسليط الجان على كل من يقف في طريقه، أخرج الآثار والمساخيط من باطن الأرض ومع كل مقبرة كان يكتسب سرًّا جديدًا وخادمًا قويًّا من الرصد، ذهبوا به الطوارق إلى عالمهم عدة مرات وفي كل مرة كان يعود بقدرات خارقة، أصبح شيطانًا متجسدًا بآدمي، عاش سليمًا معافًى لسنوات طوال، ظلَّ يعد المنصور لخلافته وهو يعلم أنه لا يشبهه لكن على أحد أبنائه أن يكمل مسيرته ويبرم عهدًا جديدًا مع الطوارق وإلا هلك نسله

بالكامل، نفسه المظلمة جعلته لا يرى الحقيقة رغم كل ما مرَّ به وكل ما رآه، لم يكن يملك قلبًا بشريًا بل كان هناك بدلًا منه نيران مستعرة لم تنطفئ بعد كل تلك السنوات، لذلك أحَبه الطوارق، أعجبوا به لأنه يشبههم في كبريائهم وشرهم، لم يكونوا له خدامًا بل كان هو خادمهم المخلص فيه تحكموا في مصائر البشر وبه سالت الدماء أسفل حوافرهم ومعه عم الفساد والجنون وازدادت رائحة الموت، دخلوا كل بيت كما أرادوا عن طريق سحره وأعماله، لا يكتمل الأذى إلا بواسطة إنسان هو في الأصل شيطان مثل المتولي.

لسنوات طوال ظلَّ يعمل في استخراج وبيع الآثار حتى تخطى عمره المائة والعشرين عامًا قضاهم في معصية الله ورضا الشيطان وأعوانه، هرم من كان يمتلك القوة، أصيب بالشلل وأصبح طريح الفراش لا يقوى على الحراك، مات في حياته أربعة أبناء وزوجتان ولم يتبقَّ من نسله سوى ثلاثة أكبرهم يدعى (منصور) والأوسط (هيبه) والأصغر (عزيز) وأبنائهم.

شعر (المتولي) أن أجله قد اقترب وأراد أن يورث سر «الطوارق» إلى أقرب الأبناء إلى قلبه وأشدهم غلظة ووقع الاختيار على (منصور)، أخبره أن هناك عهدًا مع أعتى الشياطين قوة وأشدهم قدرة وأعطى له اللفافات وعلمه

بعض اللغات القديمة والتى يستخدمها في التواصل معهم، أخبره انه كان يعده في السابق من اجل ذلك اليوم، جعله يرى تقديم القرابين لهم مرة تلو الأخرى، وفي كل مرة كان يرتعش ويرتجف، في تلك المرة أمره أن يحضر خمسة من الأطفال حديثي الولادة كي يتم العهد بينه وبين «الطوارق»، بحث عن طريقة يحضر بها تلك الأطفال وتمكّن من خطفهم، أمره والده أن يهبط به أسفل البيت وأخبره أن هناك غرفة مخبأة أطلق عليها المذبح وهناك ذبح الخمسة أطفال أعطى كل واحد من جان «الطوارق» طفلًا قربانًا، نظر إليهم وهم يأكلون لحومهم الطرية وعظامهم الهشة تتحطم بين أسنانهم وشرب معهم من الدماء محاولًا التماسك أمام والده الذي يحتضر.

مات (المتولي) بعد أن أعطى الميراث إلى (منصور) وعند دفنه لم يحضر أحد بل فضلوا أن يمكثوا داخل منازلهم خوفًا من سيرته السوداء، وضعه أبناؤه الثلاثة داخل القبر الذي اشتعل فور إغلاقه وظل مشتعلًا لأيام، كانت النتيجة من جنس العمل، انتهت أيام المتولي وبدأت أيام (منصور) الذي لم يكن يشبهه من الداخل أو الخارج فقد كان ضعيف الجسد والقلب وكذلك الشخصية، لم يتمكن من استكمال تجارة والده في الآثار وأصبح ينفق أمواله يمينًا ويسارًا حتى أتى اليوم الذي تغير معه كل شيء إلى الأسوأ، اليوم الذي قرر

فيه «الطوارق» قلب الطاولة واسترداد ما منحوه لأعوام طوال.

***

شتاء عام 2010

داخل مكتب اللواء عاطف يونس

دخل إلى مكتبه مسرعًا ثم أغلق خلفه الباب بقوة، أخرج هاتفه الجوال وبحث عن رقم الرائد (مراد)، خلع غطاء الرأس وجلس خلف مكتبه متأهبًا للرد، وعندما أجاب قال بنبرة حادة:

- أريد أن أعلم آخر التطورات في قضية بيت المتولي، لماذا لم ترسل لي تقريرًا مفصلًا عما توصلت إليه؟ لدينا قضايا أخرى أيها الرائد.

أتى صوت (مراد) هادئًا:

- نحن نبذل أقصى ما في وسعنا، إنها قضية معقدة إلى أقصى درجة، رجاء أمهلني بعضًا من الوقت كي أتمكن من حل تلك القضية.

هدأ اللواء (عاطف) للحظات.

- أمامك مهلة ثمانية وأربعون ساعة بعد ذلك سأرسل ضابطًا آخر لتولي القضية بدلًا عنك.

أتى صوت (مراد) عبر الهاتف:

- أشكرك، أعدك أنني سأتوصل إلى الجاني قبل المهلة التي

أعطيتني إياها، أنا على وشك أن أصل إلى الحقيقة.

رسم اللواء (عاطف) شبح ابتسامة على وجهه ثم قال:

- وأنا أثق بك لكن لا تأمن جانبي يا حضرة الضابط، رجاء لا تجبرني على استبعادك.

أنهى اللواء (عاطف) المكالمة ثم وضع الهاتف أعلى المكتب وأخرج عدة ملفات كتب عليها ملفات سرية وبدأ في قراءتها ودراسة ما بها بتركيز كبير.

***

انتهت (سعاد) من بيع الخضروات على ناصية شارع المتولي، لملمت أشياءها وحملت الأقفاص فوق رأسها واتجهت إلى منزلها الذي يبعد عن بيت المتولي بأمتار قليلة، دخلت إلى المنزل ووضعت ما تحمله أرضًا وقبل أن تغلق الباب التفتت سريعًا وأصدرت صرخة عندما شعرت بحركة ما خلفها، خرجت من باب الشقة وهي تمسك عصا المكنسة لتجد قطة، أخذت نفسًا وعادت إلى الداخل وأغلقت الباب بعدد كبير من المزاليج والأقفال من الداخل.

اتجهت إلى كرسي قريب وألقت بجسدها المنهك فوقه، شردت قليلًا وقد أعاد لها ما حدث منذ لحظات ذكرى سيئة تريد أن تمحوها من ذاكرتها لكنها لا تأبى أن تنمحي حتى مع

مرور سنوات.

في ليلة تشبه تلك الليلة ببرودة طقسها عادت إلى منزلها وضعت ما تحمله ارضًا، شعرت بحركة خلفها وعندما استدارت وجدت شيطانًا متجسدًا في صورة آدمي يقف وينظر لها بشهوة، لم تتبين ملامحه لكنها استجمعت رباطة جأشها وحاولت دفعه إلى الخارج لكنه أبى وصفعها بقوة فوقعت أرضًا، أخذ في تمزيق ملابسها وكلما تمنعت صفعها من جديد، لم تجدِ صرخاتها المتواصلة نفعًا، أغلق الباب من الداخل وجردها من ملابسها فاصبحت أمامه لحمًا طازجًا ملقى أرضًا وقد أحل لكلاب الشارع أن ينهشوا منه متى شاءوا وكيفما أرادوا، اعتلاها مرات ومرات حتى فقدت أعز ما تملك برفقة الوعي، ظل بجانبها نائمًا حتى مطلع الفجر، أفاقت على ألم يشق بطنها وروحها، نظرت له في غضب وأرادت القصاص، تحركت ببطء وأمسك بسكين وقبل أن تطعنه أمسك بيدها ولكمها بقوة وغادرها بعد أن سلبها أشياء لا تُعد ولا حصى.

هرولت إلى الباب وأغلقته وظلت جالسة أرضًا تبكي وتنتحب حتى ذبلت روحها، تركتها الحياة عارية النسب من دون سند كما تركها هو عارية الجسد، تتلاطمها الأيام وتلقي بها الليالى في أحلك الآبار ظلمة من دون هوادة أو

رحمة، ظل يأتيها في كل يوم بشهوة لا تنتهي وغضب يفرغه بداخلها، لم تكن تقوى على ردعه ولم يكن لها حول ولا قوة حتى ذات ليلة أتى إليها مخمورًا لا يعي، دفعته وتمنعت فأمطرها سيلًا من اللكمات والركلات وتركها بين براثن الموت.

أفاقت (سعاد) على صوت القطة في الخارج وهي تنبش بعتبة الباب، ضمت قدمها إلى صدرها وبدأت ترتجف وهي تعلق عينيها على الباب في خوف، ظلت هكذا لساعات حتى غلبها النوم.

***

داخل منزل ناصر، وأمام «اللاب توب» الخاص به وبين العديد من فناجين القهوة والعشرات من أعقاب السجائر التي تسببت في رؤية ضبابية داخل غرفة المكتب، جلس (ناصر) يجرى بحثًا شاملًا عن عدة اشياء وأخذ يدوّن في أوراق بجانبه، ظلّ لساعاتٍ يبحث ويدوِّن، يراجع ويشاهد العديد من مقاطع «الفيديو» حتى توصل إلى شيء ما، لمعت عيناه عندما وجد ضالته أخيرًا، أغلق «اللاب توب» ووضع الأوراق التي دوَّن بها كل ما توصل إليه بجانبه واتجه إلى غرفة نومه.

ألقى بجسده على الفراش، استتر بغطاء مصنوع من الفرو

يقيه البرد القارس وليالي الوحدة الموحشة، شعر بثقل جفونه فتركها تسقط وتلتحم لكنه فزع واعتدل سريعًا عندما رأى رجلًا يقف على باب حجرته، أغمض عينيه وعندما فتحهما شاهده يبتعد، لم يعِ حقيقة ما يراه، أهو بسبب الإرهاق أم أنه أوشك على الجنون، خرج وبحث داخل كل حجرات الشقة ولم يجد أحدًا، عاد من جديد إلى حجرة نومه، عادت جفونه إلى الثقل وقبل أن تلتحم رآه من جديد لكنه أراد الخلاص وترك النوم يجتاح أوصاله ويأخذه إلى عالم موازٍ بعيدًا عن ذلك العالم الأسود.

(12)

«النهايات دائمًا تكون بدايات لأناس آخرين، أبدان تُسلط على أبدان، الحقيقة ضبابية للغاية في مثل تلك الظروف، أن تخاطر بكل شيء في وجه الشيطان لهو عين الجنون، كلمات تتردد في جوف كهف مظلم من كائن ظلَّ حبيسًا لأعوام وحان وقت إطلاق سراحه».

عام 1960

داخل بيت المتولي

جلس (منصور) في القبو وسط عشرات الشموع، وضع أمامه اللفافات الخاصة بالطوارق أعلى قطعة خشب مستديرة ثم اعتدل وأمسك بعصا أبيه المتولى ذات رأس الثعبان الأسود، أمسك بالكتاب غريب الشكل وبدأ في القراءة بصوت مرتفع.

تساقطت الأتربة فوق رأسه فور ارتجاج جدران البيت، توقف عن القراءة وشعر بالخوف وهو ينظر إلى خيالات تتحرك من حوله، تذكر كلمات والده له بأن يكون قوي القلب متماسكًا أمامهم، أكمل قراءة بصوت ضعيف لا يخرج سليمًا، سمع صوت ضحكات مرتفعة قادمة من الظلام، أمعن النظر فرأى ملامح وجه آدمي وسيم الوجه مهندم الملابس، ارتعشت أوصاله وحاول النظر إلى الكتاب فلم يجده في مكانه، بحث عنه فوجده يطفو في الهواء من تلقاء نفسه ثم بدأ في الاحتراق الذاتي، وقف وحاول الإمساك به فرأى ثورًا عملاقًا يقف أمامه على قدمين ينظر له في غِل كاد أن يصيبه بأحد قرونه لكنه تفاداه وقفز بعيدًا فسقط أسفل قدم ذلك المتشبه بآدمي، أمسك بتلابيبه ورفعه في الهواء وكأن لا وزن له ثم قربه من عينه وقال بغضب:

- اعتقدت أنا وإخوتي أن نسل المتولي له نفس القوة وغلظة القلب لكننا كنا مخطئين، هنا يكسر العهد وينتهي نسل المتولي.

ألقاه أرضًا وتراجع إلى الخلف، ارتفعت النيران وأمسكت بملابس منصور الذي حاول أن يهرب من القبو لكنه سقط أرضًا وأخذ يصرخ بقوة وينادي على أهله بالأعلى تارة لينقذوه، وتارة أخرى ليهربوا وينجوا بحياتهم، وصل على صوت صراخه أخواه وحاولا الهبوط لكن النيران كانت قد امتدت إليهم وحاوطتهم من كل مكان فلم يتمكنوا من الرجوع وظهر من بين ألسنة النيران وجه الثور الذي يحمل عينين من الجحيم أمسك بقدم أحدهم وسحبه إلى الأسفل ثم غرس قرنيه بصدره لعدة مرات، حاول الآخر الهروب بعد أن رأى ما أصاب أخويه لكن تفاجأ بأحد الطوارق يتحرك حوله وهو يتشكل تارة بشكل أبيه ثم شكل أخويه، وفجأة أصبح على شاكلة شيطان عملاق يصرخ بوجهه، وقع أرضًا وأصابته صدمة شلت حركته، اقترب منه المسخ ثم غرس أظافره الطويلة في صدره وجره إليه، رفعه وأصبح وجه الشاب أمام وجه الشيطان وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، نظر له بتشفٍّ وغِلٍّ ثم ألقى به إلى أسفل حيث ابتلعته الأرض وهو يصرخ، امتدت النيران إلى أعلى وأغلقت الأبواب أمام زوجاتهم وأطفالهم وانتهى نسل المتولي إلى الأبد.

اجتمع (عزيميل) بإخوته وهبطوا بالجثامين المحترقة والكتب اللفافات أسفل الأرض حيث مقبرة الكاهن (منتوحتب) وكأن شيئًا لم يحدث، ظلَّ أهل الحي يستمعون إلى صراخ (منصور) ابن المتولي لعدة أيام متتالية وهم يخشون الدخول واقتحام البيت، انتهى الصراخ وانتهى معه نسل المتولي.

قرَّر أهل الحي بناء سور حول البيت وسد البوابة حائط مرتفع حتى لا يدخله أحد، تناقل جيل بعد جيل ما حدث حتى أصبح أمرًا مسلم به وأسطورة يخيف بها الأهالي أطفالهم، وفي النهاية مكث السر داخل جدران البيت ومكث الطوارق بجانب سرهم.

***

فى تمام السابعة صباحًا رن منبه عتيق موضوع أعلى كومود مكتظ، مد يده ليطفئه ثم اعتدل، فتح نور الأباجورة وهبط من أعلى الفراش بوجه ناعس، وقف أمام المرآة ونظر إلى انعكاس صورته فاستفاق عندما لمح خيالًا يمر من خلفه، التفت سريعًا فلم يجد أحدًا، أمسك بالمنشفة ووضعها أعلى كتفه الأيسر واتجه إلى الرواق الطويل الذي يقود إلى الحمَّام.

انتهى (ناصر) من ارتداء ملابسه الثقيلة ثم وقف أمام المرأة بهدوء ينظر إلى انعكاس صورته بترقب لكن تلك المرة لم يرَ أي خيال، أمسك بعدة ورقات سهرَ في كتابتها لوقت متأخر ثم اتجه إلى باب الشقة وفتحه، أخذ نفسًا عميقًا وخرج وهو يغلق الباب خلفه في هدوء.

دلف إلى المصعد وانتظر أن يصل به إلى الدور الأرضي، فتح الباب واتجه إلى مدخل العمارة ونظر إلى البواب الذي يغط في نوم عميق ثم اتجه إلى سيارته، ركب السيارة وأخرج هاتفه الجوال وأخذ يبحث عن رقم الرائد (مراد) حتى وجده واتصل به.

- أنا علمت الحقيقة، لا وجود للشياطين في بيت المتولي بل هناك العشرات منها في الخارج، من قتل هم أهل الحي، أريد أن أقابلك وسأشرح لكل كل شيء بالأدلة.

بعد مرور نصف ساعة وصل (ناصر) إلى مكتب التحقيقات وبيده بعض الأوراق وضعها أمام (مراد) على المكتب وجلس ينظر له بتركيز وهو يقرأ حتى انتهى وقال:

- حمض الليسر LSD؟

ابتسم (ناصر) قائلًا:

- نعم، مادة حمضية لا لون لها ولا رائحة وقد تناولتموها

بكثرة مؤخرًا، وهي السبب في كل ما حدث من هلاوس مخيفة داخل بيت المتولي وفي الأحلام لكل واحد منكم، وضعوها لكم في القهوة والمياه وفي كل شيء مشروب، لقد تواطأ أكثر من فرد يسكنون الشارع في تلك الجرائم لسبب عليك أن تكتشفه بنفسك وهي نفس المادة التي وضعوها للمجني عليهم قبل ذهابهم إلى بيت المتولي وأخفوها بالخمور حتى لا تظهر في عينات التحاليل، خطة في غاية الذكاء خطة لم تخطر على بال الشيطان نفسه، التلاعب بنا وبالمجني عليهم والاستفادة من أسطورة ذلك البيت.

اعتدل مراد:

- لكنني كنت أرى كوابيس تخص ذلك البيت وذلك الرجل أسمر البشرة (المتولي) قبل أن تبدأ القضية وأتناول ذلك الحمض؟

جلس ناصر ثم نظر إلى مراد:

- اروِ لي عن ذلك الكابوس الذي تراه.

- كنت أرى المتولي وعصاه السوداء ذات رأس الثعبان وهو يقف أمام خمسة من المسوخ وبينهم خمسة من الأطفال موضوعين بالمهد ثم ينقض الخمسة مسوخ على الأطفال ويلتهمون لحمهم ويشربون دماءهم، ثم أرى ورقة مكتوب

لها خمسة أسماء غريبة تشبه بشكل كبير إحدى الورقات التي وجدتها صدفة داخل ملف تحقيقات يخص أبي في الماضي.

مسح ناصر على وجهه وأخذ يفكر قليلًا ثم تكلم قائلًا:

- خمسة أسماء لخمسة شياطين من جان الطوارق، أنت نطقت بأسمائهم لذلك فتحت بوابة صغيرة مكنتهم من التسلل إليك أثناء النوم، لقد رأيت ما حدث في الماضي، رأيت العهد الذي أبرمه المتولي معهم عن دون قصد منك، لذلك كنت ترى الكوابيس دائمًا.

نظر (مراد) إلى (ناصر) ثم أشعل سجارة وكأنه يريد أن ينسى أمر الكابوس وقال متسائلًا:

- لكن أين الدلائل المادية؟

اعتدل (ناصر) في جلسته وقال:

- في محل العطارة، عطارة الشيخ بدر حتمًا سنجد كمية كبيرة من تلك المادة هناك، سنذهب إلى هناك ونجلس على تلك القهوة ونأخذ عينة، ولن نشرب شيئًا تلك المرة ثم ندخل محل العطارة ومعنا قوات من الشرطة ونبحث وسنجدها حتمًا.

وقف الرائد (مراد) وتبعه (شريف) و(ناصر) وقال:

- إذًا لمَ الانتظار، ستكون قضية العام بكل تأكيد إذا ثبت ما تقوله يا أستاذ ناصر، حقيقة أنت تمتلك عقلًا إجراميًا.

خرجوا جميعًا من المكتب واتجهوا إلى سيارات الشرطة وانطلقوا إلى شارع المتولي الذي يسكنه شياطين الإنس والجان.

***

وصل الرائد (مراد) إلى شارع المتولي برفقة (ناصر) و(شريف)، قابلهم الجيران بالترحاب وكل من قابلهم عرض عليهم الجلوس برفقته كي يضايفهم لكنهم أكملوا حتى وصلوا إلى القهوة التي تبعد أمتارًا قليلة عن بيت المتولي الذي يطل وحيدًا في آخر الشارع محاط بقوات من الشرطة.

اقترب أحد العاملين في القهوة وسألهم عن طلباتهم ثم رحل وهو يقول:

- ثلاثة فناجين قهوة وصاية.

ظلَّ (مراد) ينظر إلى الأهالى بترقب وهو يفكر في كل ما قاله (ناصر)، أي شيطان منهم أنتج عقله المريض تلك الفكرة الجهنمية، كيف أقنعهم، ما السبب الذي دفعهم إلى فعل ذلك، قتل نفس حتى ولو لم تكن بريئة وتضليل العدالة، التماسك في الأقوال وردة الفعل لكل واحد منهم، جميعهم ممثلون في

غاية الاحترافية والأهم من كل ذلك كيف استطاع الكاتب (ناصر المهدي) التوصل إلى ذلك السيناريو، الحقيقة أنه يمتلك عقلًا مميزًا وفريدًا للغاية، الكثير من الأسئلة دارت داخل رأسه كدوامة تبتلع كل شيء، ثقب أسود ضرب في منتصف جبهته فشلَّ تفكيره.

أفاق على صوت القهوجي رشيد وهو يضع القهوة أمامهم على منضدة حديدية صغيرة وهو يبتسم وينظر لهم في ترقب ثم غادر كي يلبي طلبات زبائن آخرين.

أخرج (شريف) محقنًا وسحب بضعًا من القهوة في هدوء ثم أخفى المحقن داخل سترته داخل كيس وجلسوا يراقبون الوضع، خرج الشيخ (بدر) من باب منزله أمام أعينهم وبخطوات هادئة وعين تحمل الكثير من المكر، أخذ ينظر في كل الاتجاهات حتى وقعت عينه عليهم فأشار لهم محييًا واتجه إلى محل العطارة وجلس لعدة دقائق يراقبهم من خلف بضاعته.

اقترب (ناصر) من (مراد) قائلًا:

- ما الذي ننتظره؟

همس (مراد) في أذنه:

- ننتظر إذن النيابة، دقائق وسوف يصل وبعدها نبدأ

التفتيش.

دقائق ودخلت سيارة شرطة ومن خلفها عددٌ من سيارات الأمن المركزي محمَّلة بعدد كبير من العساكر، الأمر الذي بث الرعب في قلوب أهل الشارع، هبط عددٌ من الضباط ومنعوا أيَّ فردٍ من المغادرة، وقف (مراد) وتبعه (شريف) واتجها إلى القوات.

- لا أريد أن يغادر أحدٌ من سكان ذلك الشارع، أطرقوا جميع الأبواب وأخلوا المنازل والمحلات والمقاهي واجمعوهم هنا في منتصف الشارع لحين الانتهاء من تفتيش كل منزل على حدة.

بدأت القوات في الانتشار وأخلوا المنازل واحدًا تلو الآخر ومحلًّا بعد الآخر حتى انتهوا وجمعوهم في منتصف الشارع كما أمر الرائد (مراد) بعد أن أجلسوهم على كراسٍ وأحاطوهم بحاجز أمني.

دخل (مراد) إلى محل العطارة وأخذ يبحث لنصف ساعة هو ومَن معه من القوات حتى عثروا على حاوية زجاجية كبيرة الحجم داخل المخزن مخبأة بعناية أسفل المحل بحفرة كبيرة الحجم، زجاجة مكتوب عليها «حمض الليسر»، ما إن رآها الشيخ (بدر) حتى بدأ في الصراخ وهو يقول:

- لا أعلم عنها شيئًا، كيف دخلت إلى مخزني؟ صدقني أنا لا أعمل بتلك المواد.

نظر له (مراد) بحدة ثم نظر إلى (شريف) وقال:

- ضعوه في إحدى سيارات الشرطة.

أمسك به (شريف) بحزم وأخذ يدفعه بقوة في اتجاه سيارة الشرطة، ثم وضع في يده القيود وأمر أحد العساكر أن يجلس بجانبه. اتجه (مراد) إلى محل السوبر ماركت وأمر بتفتيشه فخرجوا بزجاجة مشابهة لتلك التي كانت في محل العطارة، بحثوا عن (رضوان) الذي يمتلك السوبر ماركت وأمسكوا به قبل أن يهرب وهو متخفٍّ ووضعوه هو الآخر بجانب الشيخ (بدر) وسط جلبة وعدم استيعاب الجيران لما يحدث.

بحثوا داخل كل محل وكل شقة عن زجاجة مشابهة وألقوا القبض على (صلاح) المكوجي و(رشيد) القهوجي و(سعاد) التي تبيع الخضار أرضًا، جميعهم كانوا يضعون تلك المادة في كل شيء، زجاجات المياه والمشروبات حتى الخضروات حقنت بها ليضفوا حالة من الفزع والهلوسة لكل الأهالي والجيران.

مع قدوم الليل تم القبض على عددٍ كبيرٍ من المتواطئين

في قتل المجني عليهم وتضليل العدالة حتى إن (ليلى) زوجة المجني عليه الأول (رشاد) كانت تمتلك واحدة من تلك الزجاجات.

لوهلة توقف الزمن بالرائد (مراد) وهو ينظر إلى أوجه المقبوض عليهم وهم يجلسون داخل سيارات الشرطة يدعون الضعف وهم يخفون أوجه للشياطين خلف وجوههم المزيفة، لم يعِ في بادئ الأمر الحقيقة كاملة لقد تم القبض على زوجة شاركت في قتل زوجها وشيخ خطط لقتل أنفس حرَّم الله قتلها، أهو الفقر مَن تسبب في ذلك أم الجهل، لا ليس الجهل بل القهر حتمًا، ما الذي فعله (رشاد) وأتباعه كي يجتمع كل هؤلاء على قتله بأبشع الطرق، لم يريدوا أن ينتهوا منه ويضعوه خلف القضبان الحديدية بل أرادوا الانتقام بأكثر الطرق شرًا وألمًا لهم، ترى ما الذي تسبب فيه (رشاد) كي ينال نهاية مأساوية مثل تلك التي حدثت له، ما الذي فعلته يا (رشاد) بزوجتك؟ بشيخ حارتك؟ بجيرانك؟ كيف أصبح الشيطان مسيطرًا على كل هؤلاء.

دخل البيوت وأماكن العبادة وشقوق الحائط، جرى مجرى الدماء في العروق، امتزج بأرواحهم الباهتة، ألقى بزرته المحرمة في جوف كل واحد منهم فنبتت شجرة تحمل رأس الشياطين ثم وقف متفرجًا على إبداع بنو آدم، آلاف الصور

ومئات الأسئلة عصفت برأسه التي كادت أن تنفجر من تلقاء نفسها.

أفاق الرائد (مراد) من شروده عندما سمع صوت (ناصر) يقف أمامه ويشير إلى بيت المتولي وهو يقول:

- هناك أحدٌ في الداخل رأيته يراقبنا في المرة السابقة لكن فضلت أن ألتزم الصمت لحين التأكد، هذا الشخص هو الحلقة المفقودة يجب أن تمسك به الآن.

أشار (مراد) إلى (شريف) وإلى باقي القوات وهو يقول:

- اقتحموا بيت المتولي، الآن هناك أحد بالداخل.

ظهرت معالم الغضب على وجه الشيخ (بدر) ولاحظها الكاتب (ناصر)، اقتحم القوات البيت وبعد عدة دقائق خرجوا وهم يمسكون بشاب هزيل الجسد وجدوه في مخبأ سري أسفل بيت المتولي، وبعد التحريات عنه علموا أنه (خالد بدر) ابن الشيخ بدر الذي ادعى وفاته منذ سنوات.

أمسك به (شريف) وأجلسه بجانب أبيه وكبَّله بنفس القيود ثم انطلقت بهم سيارة الشرطة وهم ينظرون إلى بعضهم البعض بعين دامعة.

***

داخل مكتب التحقيقات جلس الرائد (مراد) يقرأ تقرير المعمل الجنائي الذي أكَّد وجود حمض «الليسر» داخل القهوة والمشروبات والخضروات كما توقع الكاتب (ناصر المهدي).

رفع (مراد) عينيه فرأى نسلًا من الشياطين يقفون أمامه مختبئين في أشكال آدميه متراصين بجانب بعضهم البعض، فكان الشيخ (بدر) يقف وبجانبه ابنه (خالد) ومن بعده (ليلى) ويليهم (سعاد) ثم (صلاح) و (رضوان)، جميعهم ينظرون بغضب إلى (مراد) وكأنهم يلومونه على أنه اكتشف الحقيقة، وقبل أن يتحدث قال الشيخ (بدر) بغضب:

- كانوا يستحقون الموت ألف مرة ولو عاد الزمن لفعلت ما فعلته بهم وأكثر، لا يخشى أيٌّ منَّا الموت شنقًا لكننى أريد أن أعلم شيئًا واحدًا، كيف.

أشعل الرائد (مراد) سيجارة وظهرت عليه علامات التعجب فأكمل الشيخ (بدر):

- كيف علمتم بأمر تلك المادة؟ لقد كانت خطة محكمة للغاية.

أشار الرائد (مراد) إلى الكاتب (ناصر المهدي) الذي كان يجلس في أحد أركان المكتب في صمت، نظر له الشيخ (بدر) للحظات قائلًا:

- لا أعي، كيف استطعت أن توقع بنا؟ أنت من نسل الشيطان.

وقف (مراد) وضرب بيده المكتب الخشبي بعصبية وقال:

- يكفي، يكفي خرافاتك، لم نعد تحت تأثير المخدر، أريد أن تخبروني بكل شيء الآن.

ارتفع صوت (خالد) وهو دامع العينين:

- كل شيء بدأ عند رشاد وانتهى عنده، القصاص، كل من يقف أمامك الآن تعرَّض لظلم بين من رشاد ورجاله، لم يحمِنا أحد منه، دخل السجن وخرج أقوى وأكثر شرًا، لم يكتفِ أبدًا ولم يكف عن الظلم، هل أخبروك في الملفات التي قرأتها أنه اعتدى هو رجاله جنسيًا على سعاد التي تقف أمامك ثم تسبب في نزيف لها عندما اكتشف حملها من أحد رجاله؟.. هل أخبروك عن قدم صلاح التي نقصت إصبعان عندما رفض أن يدفع الإتاوة إلى رشاد؟ هل تعلم بأمر ابن بكر القعيد بعدما ضربه رشاد على ظهره بكرسي من حديد ومكث في المستشفى أسابيع؟ هل أخبروك عن سبب الجزء المحروق بجسد رشيد القهوجي مَن المتسبب به؟ هل أخبروك رجالك عما فعله بليلى؟

نظر له (مراد) بعدم استيعاب قائلًا:

- أعلم ما فعله بليلى، ضربها وأهانها.

أصدرت (ليلى) ضحكة مرتفعة ثم قالت:

- تلك قشور، ما أخبروك به مجرد قشور، من يقف بجانبي الآن حرم أن يكون زوجي وحرم من الحياة سليمًا معافى عندما تمت خطبتي عليه، هذا قبل أن يقرر رشاد أن ينزعني من بين أحضانه ويحاول قتله في الماضي.

اتسعت عين (مراد) من التعجب فأكمل (خالد):

- لقد نشأنا سويًا وولدنا في نفس الشهر، في الماضي كنت شابًا ناجحًا وطموحًا، وكان رشاد لا قيمة له، شاب متهور نشأ على الفساد، في الوقت الذي كنت أعين معيدًا في كلية العلوم وأتجهز للزواج من ليلى كان هو يقضي عقوبته في السجن بسبب سرقة أحد محال الذهب، عندما خرج من السجن أراد أن يثبت أنه أجدر مني بليلى فعرض عليها مبلغًا كبيرًا من المال كي تتركني ورفضت، وعندما أخبرتني ذهبت إليه وهددته أمام الجميع، وفي نفس الليلة أتى هو ورجاله وضربوني أمام الجميع، جردوني من ملابسي أمام حبيبتي وأبي ثم أخرج سكينًا وسلبني ما يميز الرجل عن النساء، أراد قتلي فألقى بي في الصحراء العارية أنزف حتى الموت ورحل وهو في حالة من السُّكر والنشوة، ظن هو ورجاله أنني فارقت الحياة لكنني نجوت، وجدني أحدهم وضمد

جراحي وأعطاني المال والمأوى حتى أصبحت أفضل، عدت إلى الشارع وتخفيت عن الأنظار داخل بيت المتولي وكنت على تواصل مع أبي وعلمت أنه تزوج من ليلى وعندما اكتشفت ليلى أنه عقيم ظل يعذبها، وأخذ يتناوب هو ورجاله على اغتصابها دون رادع لهم، بعد عدة شهور أعددت خطة محكمة، ظللت أراقبه هو ورجاله في كل ليلة وأخطط للانتقام في الوقت المناسب، علمت والدي كيف يحضر حمض الليسر وبكميات وهي مادة (عديمة اللون والرائحة والطعم في شكلها النقي مركب شِبه قلوي ومن المهلوسات القوية المؤثرة على العقل جرعة صغيرة جدًّا تكفي لإحداث اضطرابات في الرؤية، والمزاج والفكر)، جراحي لم تلتأم ودموعي لم تنضب، جمعت كل من كان له ثأر عند رشاد ورجاله وأعددت العدة، كان لا بُدَّ من إعادة إحياء أسطورة بيت المتولي وزرع الخوف في نفس الجميع، أعدَّ والدي ذلك المخدر بكميات كما اتفقنا ووزعناه على الجيران بعدة سبل وهذا ما ساعد على بث الخوف والفزع على نفوسهم، كنت أقضي الليل وأنا أصرخ عبر مكبرات الصوت داخل البيت وأتحرك وأنا أشعل النيران في كل مكان داخل البيت برفقة صلاح ورضوان وسعاد كي أثبت أن الجان يسكن البيت وعاد كي ينتقم، ثم بدأت ليلى بالحديث عن كنز داخل البيت وأن ذلك الكنز يُقدَّر بملايين وظل أهل الحي يتناقلون الأخبار

حتى وقع بالفخ وقرر أن يدخل هو ورجاله إلى المنزل.

صمت (خالد) وبدأ في البكاء فأمسك (ليلى) بيده وهي دامعة العينين فنظر إلى (مراد) وقال:

- كان لا بُدَّ أن يقتص منه، ما فعله بي وبليلى وبكل هؤلاء كان لا بُدَّ وأن يدفع ثمنه، أقصى ما كان سيصيبه هو أن يشنق، لم أكن لأسمح بذلك، لديه شيء يخصني وكان لا بُدَّ من سلبه إياه كما سلبه مني أمام ليلى وأبي والجيران كما فعل، قدماه كانتا لا بُدَّ أن تحطما وهو على قيد الحياة كما فعل بابن بكر، أن يحرق كما فعل برشيد كل ما فعله بنا يومًا رُدَّ إليه، حتى أداة القتل أعددت لها جيدًا، صنعت مخلبًا بقبضة من الحديد وأحضرت قطعة من العاج وجعلتها أقرب شبه من مخلب الدب أو الذئب حتى تحدث نفس ضرر المخلب بشكله الطبيعي، عكفت على صناعته مع أحد الحدادين مقابل مبلغ من المال وظللت أتدرب على استخدامه وقطع أشياء مختلفة به حتى أتمكن من إحداث ضرر يشبه هجمة الحيوان تمامًا، وبعد أن تمكنت من الوصول إلى الشكل المناسب علمتهم جميعًا كيفية الاستخدام بعد أن صنعت له قفازًا خاصًا، تلك هي كانت بضاعته وردت إليه، ليلى من كان لها الحق في إنهاء حياته وكانت رحيمة به، هو ورجاله رأوا آيات العذاب كما فعلوا بنا،

تناوبنا على عذابهم لعدة أيام قبل قتلهم، نحن لم نكن الجناة أيها الضابط بل نحن المجني عليهم، ألا يحق لنا أن نثأر من طاغية، أن نسترد ما سلب منا قهرًا، ألم يحق لكل واحدٍ منا أن يقتله ألف مرة؟ لا تنظر إلينا هكذا فلسنا بمجرمين، كان لنا الحق في كل ما فعلنا. ساد الصمت لعدة دقائق ما بين الدموع والأنين، دقائق سقط فيها رداء الستر عن الجميع، الكل عرايا على كف الشيطان الذي بارك القاتل والمقتول، لم يقوَ أحد على النطق بكلمة واحدة جديدة، فالقاتل بريء والمقتول دنيء.

أشار الرائد (مراد) إلى أحد الضباط الموجودين داخل غرفة التحقيقات إلى أخذ المتهمين إلى الحجز لحين انتظار تحقيقات النيابة والحكم القضائي فلم يعد هناك ما يمكنه قوله بعد الذي سمعه، خرجوا يجرجرون الحسرات من خلفهم، بينما جلس (شريف) ينظر إليهم بحزن وألم، تحرك (مراد) واتجه إلى الشباك وأخذ يستنشق هواء وهو يشعر أن هناك غصة في قلبه ويفكر أنه في بعض الأحيان على الإنسان أن يظل مشاهد لما يحدث لا فاعلًا في الأحداث.

***

داخل جريدة الجدار جلست (منال) داخل مكتبها أمام «اللاب توب» وهي تكتب عن قضية بيت المتولي:

«تلك الحياة تحمل الكثير والعديد من التناقضات وإذا عرف السبب بطل العجب فربما من تراهم كاذبين يمتلكون أكثر من سبب للكذب وما يدفعهم لارتكاب أكثر الجرائم شرًا وألمًا، أسدل الستار عن جريمة بيت المتولي والذى تصدر عناوين الصحف والجرائم في الآونة الأخيرة حيث لقي ثلاثة من الشباب مصرعهم بأكثر الطرق إيلامًا وعنفًا وأذيع خبر زائف عن أن ذلك البيت مسكون بالجان وبأعتى الشياطين شرًا وقهرًا للإنسان، تعلمنا درسًا مفاده أن للماورائيات حدودًا وأن هناك عالمًا آخر لا يمكنه بأي شكلٍ من الأشكال الاشتباك مع عالمنا المادي المحدود، فعالمنا لنا وعالمهم لهم، العقل البشري مُعقَّد بشكل لا يُصدق أو يتوقعه أحد، جريمة مركبة ممتزجة بالثأر نفذت أمام أعين ومسامع العديد من الأشخاص دون أن يلحظها أحد، والآن وبعد أن اكتشفنا الحقيقة لم يتبقَّ سوى جملة واحدة أن تلك الجريمة ما هي إلا جريمة خطَّط لها الشيطان نفسه».

وضعت يد على كتفها فالتفتت لتجد (ماجد) يقف خلفها وهو ما زال يعاني آثار الحادثة، دمعت عيناها ووقفت ثم احتضنته وهي تقول:

- لم أكن لأسامح نفسي أبدًا، أنا أحبك.

تشبث بها رغم تألمه.

- وأنا أيضًا احبك، وأريد أن أطلب منك شيئًا.

تراجعت إلى الخلف في هدوء وعلامات الاستفهام على وجهها في انتظار ما سيقوله (ماجد).

- أريد أن يتم نقلنا سويًا إلى قسم آخر بعيدًا عن الحوادث رجاء.

خرجت ضحكتها مرتفعة وهي تقول:

- بالتأكيد، لن أكمل في ذلك القسم من جديد.

أرسلت المقال عبر البريد الإلكتروني ثم أغلقت «اللاب توب» وأمسكت بيد (ماجد) ثم سارا سويًا ببطء في طريق جديد.

***

داخل قاعة المحكمة التي امتلأت عن آخرها برجال الشرطة والصحافة والمحامين والجيران وبحضور الكاتب (ناصر المهدي) والرائد (مراد) والملازم (شريف)، وقف المتهمون داخل قفص الاتهام في صمت ورباطة جأش في انتظار خروج القاضي ومستشاريه من غرفة المداولة والنطق بالحكم.

نظر (خالد) إلى (ليلى) بعين تملأها الكثير من المشاعر

المختلطة، هو يعلم أن النهاية قريبة، وأن انفاسهم ودقات قلوبهم أوشكت على الانتهاء والتوقف، يعلم أن ما فعله هو عين الصواب وتعلم هي الأخرى أن ما حدث هنا على تلك الأرض لم يكن ما يستحقان، وأن هناك في السماء سيجتمعان من جديد، لم يزعجهما «فلاشات الكاميرا» التي تضربهم كرصاص غير منتهٍ، وضع الشيخ (بدر) يده على كتف ابنه وقبّل رأسه وهو يدعو الله أن يسامحهم على ما اقترفت أيديهم.

دخل الحاجب فجأة قاطعًا كل شيء وقال:

- محكمة.

وقف كل من كان في القاعة في انتظار القاضي الذي دخل متجهم الوجه وجلس ومن بعده جلس الجميع إلا من هم داخل القفص ثم قال:

- بسم الله الرحمن الرحيم، حكمت المحكمة حضوريًا على كلٍّ من بدر هلال عبد الله، وخالد بدر هلال، وليلى سعيد طه، بالإعدام شنقًا وإحالة أوراقهم إلى فضيلة مفتي الجمهورية.

سقطت تلك الكلمات كسهامٍ مارقة على قلوب الجميع وعم الصمت أرجاء الكون، ابتسم (خالد) وابتسمت بعده (ليلى) واحتضن الشيخ (بدر) ابنه في مشهد لم يفهمه أحد داخل

القاعة، ثم أكمل القاضي:

- كما حكمت المحكمة على كلٍّ من رضوان عبد الكريم طه، وصلاح فريد الصباحي، وسعاد أحمد محمد ورشيد عبد الجواد زهران بالسجن خمسة عشر عامًا مع الشغل والنفاذ.

وقف القاضي مغادرًا، وسادت حالة من الهرج والمرج القاعة. ومن بين الحضور، وقف الكاتب (ناصر المهدي) وغادر في صمت وكأنه أراد أن يعود إلى ملاذه الآمن بعد أن أدى مهمته على أكمل وجه.

***

بعد مرور أسبوع وعلى أحد شواطئ الإسكندرية أمسك (ناصر) يد ابنه (يامن) الذي يبلغ من العمر عشر سنوات ويبدأ يسير برفقته على الشاطئ الرملي وهو يقول:

- غدًا عندما تصبح شابًا ستعي جيدًا لماذا تركتك هنا مع عمتك كي تتولى تربيتك وأيضًا، ستعي جيدًا لماذا فعلت كل شيء، أنا أحمل ثقلًا يكافئ الجبال، ماتت والدتك وإخوتك بسبب خطأ لم أرتكبه قط لكنني علمت به وفضلت الصمت خوفًا من القدر، لكن القدر لم يخطئ هدفَه قط، سهم مرسل من فوق سابع سماء إلى جوف الأرض لا يضل طريقه أو يحيد، سهم أصابني في منتصف القلب فسلب نصف روحي

المحترقة ولم يترك لي إلا القليل قد تمثلت بك، غدًا عندما يأتون إليك سيتحتم عليك حفظ تلك الكلمات (حصن آمن من شر كامن في جبل أسود بباب نافذ، حصن آمن من شر كامن في جبل أسود بباب نافذ). أنهى كلماته ومسح دموع ابنه المتساقطة، احتضنه ثم حمله وهو يكمل:

- جدك المهدي أخبرني بأمر الطوارق في مثل عمرك وأخبرني بصفقة جدي رضوان معهم وأنه وحده فقط من تمكَّن من التصدي لهم وطردهم من قرية الجبل، لا تبكِ فأنت رجل تمتلك دماء جدك رضوان وقلبه المضيء، أريدك أن تعلم شيئًا واحدًا فقط، إنهم موجودون وما دام نسل الطوارق ها هنا على الأرض سيعثرون عليك راغبين في قتلك.

وصل (ناصر) إلى باب منزل أخته وجلس على ركبته وقد أمسك بكتف ابنه ثم قبَّل رأسه وقال:

- أتعدني يا يامن؟

مسح الطفل عينيه ونظر إلى أبيه وهو يقول:

- أعدك أن أقول الكلمات في كل يوم.

احتضن الطفل أباه للحظات لم تطل لكنها كانت كافية لكليهما ثم أشار له مودعًا واتجه إلى مدخل العقار، ركب المصعد ثم التفت إلى أبيه ونظر إلى عينه مباشرة قبل

أن يغلق باب المصعد وانتهى كل شيء، انتهى فصل ناصر المهدي رضوان، وبدأ فصل جديد باسم يامن والطوارق.

***

في تمام الثالثة صباحًا وداخل منزل المتولي فتح الباب ودخل من خلفه (رشاد)، ومن خلفه (سيد الحامولي) و(سعيد) يحملان الكشافات ويتحركون في حذر، بدا عليهم السكر واضحًا، أشار (رشاد) إلى أحدهم أن يغلق الباب الذي فور إغلاقه اشتعلت النيران من تلقاء نفسها في عدة أماكن داخل المنزل، وظهرت خيالات تتحرك من حولهم وفي كل مكان، ثم اندفع (خالد) في اتجاه (رشاد) وهو ممسك بجذع خشبي وضربه على رأسه ففقد الوعي وفعل المثل مع الاثنين الآخرين.

أفاق (رشاد) على وجه (خالد)، حاول أن يتحرك لكنه كان مكبلًا بقوة، نظر حوله فوجد الشيخ (بدر) (وصلاح) و(بكر) و(رشيد) ومن خلفهم تقف (سعاد) و(ليلى)، ابتلع ريقه وعلم أنه هالك لا محالة، وأن هذا الوقت هو ما كان يخشاه طوال حياته وقد حانت اللحظة الحاسمة.

ارتدوا جميعًا قفازات بيضاء واقترب منه (خالد) ووضع في فمه قطعة قماش لمنعه من الصراخ وبدأ في تجريده من الملابس، حاول (رشاد) كثيرًا أن يصرخ أو يتحرك لكنه فشل،

أمسكوا به جميعًا وبذلك المخلب الحاد تناوبوا عليه فقطع (خالد) عضوه الذكري بينما أخذ كلٌّ منهم دوره في تعذيبه وغرس المخلب في جسده، أمسك عم (بكر) بالجذع الخشبي وحطَّم ساقيه بدون هوادة أو رحمة ثم جاء دور (ليلى) التي أمسكت بالمخلب ونظرت في عينه المتوسلة ثم مررت المخلب بقوة قطعت رقبته بقسوة وهي تصرخ، ظلت تراقب الدماء التي تخرج مندفعة من رقبته حتى فارق الحياة، وضعوه في مكان معين داخل المنزل وخرجوا من الباب الخلفي لبيت المتولي تاركين (خالد) برفقة الرجلين داخل مخبأ أسفل البيت.

***

من العدم خلقَ الله الوجود، ومن الصمت خلق الصوت، ومن الظلام وُلدَ النور، ومن الفضاء وُجدَ المكان، ومن السكون صُنعت الحركة ومن النار خلق الجان ومن الطين خلق الإنسان ومن قبلهم كان القلم الذي كتب كل شيء كان وما سيكون، نفخت الروح في جسد أجوف فحدثت المعجزة وسجد من سجد وأبى مَن أبى، خلقت العداوة بين الطين والنار من بين طيات الغرور، الكبر كان أكبر من العلم في نظره، إنسان جاهل على الفطرة وشيطان مارد يعي المصير، أرض ذات أنهار وبحار أعدت للخليفة القادم من

السماء لكنه لم يهبط وحيدًا بل هبط معه ألد الأعداء، سكن آدم برفقة حواء في الأعلى حيث الأخضر والأزرق ولون الشمس الذهبي بينما سكن الشيطان كهفًا مظلمًا متشبعًا باللون الرمادي المختلط بنار لا تنطفئ ونفس تئن على الخسارة وسوء المصير، عمر آدم الأرض وانتشر نسله في كل مكان فوق تلك الأرض بينما عشش الشيطان وذريته أسفلها في ترقب مرير، صراع دائم مستمر بين الجنسين على مَر الزمان وحتى نهايته، ملحمة يعلم طرفاها نهايتها، لن يكل الإنسان عن التوبة ولن يتراجع الشيطان عن قسَمِه، سجل أسود طويل ويجب أن نقرأه حتى آخر صفحاته وبعدها يغلق الكتاب ويُطوَى ثم تحشر الأرواح إلى مصيرها، إما جنة خضراء زاهية وإما نار سوداء نتنة.

وضع الكاتب (ناصر المهدي) القلم جانبًا بعد أن أنهى كتابة كلماته السابقة، ثم أغلق الكتاب الذي ظهرت كلمة «رواية الطوارق الجزء الثاني» على غلافه. ارتشف آخر رشفة من فنجان قهوته ونظر إلى صورة تجمعه مع أسرته، وقف فلمح خيالًا يقف داخل الظلام استدار واتجه إلى الشرفة وفتحها فتطايرت الستائر السوداء في وجهه وشكلت أوجه كثيرة لا حصر لها، نظر إلى تلك الأوجه لكنه لم يكترث لها، دخل إلى الشرفة في صمت وهو يرسم ابتسامة على وجهه، القمر أحمر قانٍ، نظر إلى السماء التي تزرف أمطارًا غزيرة وكأنها

تبكي عليه مبكرًا، ضرب البرق فشق السماء وسمع دوي الرعد غاضبًا في الأفق، نظر إلى أسفل ليجد ذلك الشخص المهندم وهو يقف مبتسمًا وهو ينظر إليه بعين ثابتة، أغمض ناصر عينه ثم أخذ نفسًا عميقًا مليئًا به صدره وصمت كل شيء إلا صوت دقات قلبه التي أعقبها صوت للرعد هز أرجاء القاهرة.

تمت- القاهرة يناير 2023